رواية

نهى الشاذلي

# لعبة الزمن

12 ساعة في حياة رجل هارب

ساحر الكتب

# إهـــداء..

إلى بطل الحكاية.. زين الدين الحُسيني

أعرف أنك موجود.

أرى نُسخًا كثيرة منك كلَّ يومٍ

في الشارع، وفي العمل، وعلى المقاهي..

أرجو أن تصلك هذه الحكاية

وتعرف أن هناك على الأقل مَن يشعرون بمعاناتك

نُهى

«وأما الربّ فأعدَّ حوتًا عظيمًا ليبتلع يونان»

سِفْر يونان

# - السَّاعة الأخيرة -

انغرست قدما زين الدين الحسيني في رمال شاطئ الشاطبي. المرَّة الثانية التي يجتمع فيها مع بحر الإسكندريَّة وجهًا لوجه. لا يحب أن يتذكَّر المرَّة الأولى أبدًا، عندما جاء إلى هُنا قبل عشر سنوات مع حبيبته (حياة).

اندمَج سواد الليل مع زرقة البحر، ليصير الأفق مغموسًا بالعتمة. من بعيد، لم يرَ بوضوح الخطّ الفارق بين السماء والبحر، كأنهما صارا كتلة واحدة من الظلام الهائل. ترك نعليه على الرمال الباردة كبرودة هذه الليلة من ليالي يناير.

بكامل ملابسه، بدأ يخطو أولى خطواته إلى المياه بثِقَل المُقدِمين على تجربة مخيفة ومُربِكة، ممسكًا بقوَّة ساعة يدٍّ سوداء، ينعكس ضيُّ النجوم البعيدة على جلدها القاتم مُحدثًا لمعة رغم الليل. وكلَّما غمرته المياه أكثر، نظر إلى ساعته بقلق عاقدًا حاجبيه الكثيفين، وكأن قُنبلة موقوتة سوف تنفجر بعد قليل، وحدثًا جللًا سوف يغيِّر مصائرَ وأقدارًا.

رغم ذلك، لم يستطع أن يتخلَّص من الذكريات التي تجتاح عقله من الزمن البعيد، ولا أن ينسى الليلة المشؤومة التي قضاها هُنا أوَّل مرَّةٍ، ليلة عيد ميلاده الثلاثين..

***

«أحبّك يا زين..»

قالتها «حياة» والبهجة تكاد تتجسَّد في عينيها كطائر

أبيض طليق، بينما جلس هو في أحد المقاهي المقابلة للبحر، واضعًا ساقه اليُمنى على اليُسرى، واثقًا من نفسه، وقد تصنَّع اللؤم عندما ضيَّق عينيه قدر الإمكان ثم قال:

- أشكُّ في مقدار حبِّكِ لي.

هي أيضًا تصنَّعت الدَّهشة، رفعت حاجبيها المرسومين بعناية فنَّان يسعى إلى الكمال، ونظرة شغب طفوليَّة تطلُّ من عينيها حين هتفت:

- تتحدَّاني! أريك مقدار حبِّي لك كيف يكون؟ والآن؟

ضحك مشككًا، وقال بخبث مُصطنع:

- أتحداكِ، لا تستطيعين.

رغم برودة الجو، المقهى كان دافئًا. الشاشات المُعلَّقة تعرض مباراة حماسية لكرة القدم، وسحابة كبيرة من الدخان بمزيج من روائح النيكوتين والعنب والتفاح، تحوم حول رؤوس الرجال والشباب بانسيابية تزيد من شعورهم بالدفء.

نهضت حياة عن كرسيها ملبيةً دعوة زين للتحدي، حتى إن زين يذكُر جيدًا نظرات الرجال من حولهم، كأنهم يتساءلون عما حدث لتقوم هذه الفتاة الجميلة مندفعة هكذا! لم يَدُم فضولُهم أكثر من ثوانٍ معدودة، ليشاهدوا قدَم لاعبٍ وهي تخطف الكرة بحِرفية من بين قدميّ الخصم، ليسدِّدها بقوة. طارت الكرة بشكل دائري لتتفادى جميع اللاعبين، كأنها تعرف طريقها للشبكة. تعالت الصيحات والهتافات من كلِّ رواد المقهى

«جووول" . .

أما زين وحياة فكانا في عالمٍ آخر، بينهما مباراةٌ من نوعٍ آخر؛ إثبات حُبٍّ، وحياة مصممة على إحراز هدفٍ. .

«قُم معي، الآن. .» هتفَت بإصرارٍ.

استجاب زين وهو يضحك مستسلمًا لرغبتها. سحبته من يده إلى خارج المقهى، وكأنها تسحب خلفها طفلًا عنيدًا.

- سأريك الآن كم أُحبُّكَ.

وقفا على الرصيف أمام المقهى وهي ما زالت ممسكة بيده، وكأنها تخاف أن يهرب، تنظر يمينًا ويسارًا منتظرة فرصة للانطلاق. كانت السيارات تمر بسرعة جنونية، مثل جنونهما وهما يضحكان ويركضان أخيرًا ليعبرا الشارع. القمر كان ينظر إليهما بسخرية العالِمين بأسرار الكون، والسماء كانت كحيلةً عندما أوقفَته «حياة» أمام السور الفاصل بين الرصيف والشاطئ. يذكُر زين أن الساعة كانت حوالي التاسعة مساءً. لن ينسى أبدًا ارتباكه عندما جلست هي على السور القصير العريض، وأدارت جسدها كله ليصير باتجاه الشاطئ، ثم قفزت فجأة إلى الرمال. ضحكت وخلعت حذاءها المفتوح من الأمام، بعدما امتلأ بالرمال المخلوطة بالحجارة الصغيرة، ثم قالت بمرح طفولي:

- اقفز، سأريك شيئًا.

هز رأسه في إصرارٍ:

- لا. . لا أريد.

عقد حاجبيه بعدما زالت مظاهر الفرحة من ملامحه

الحادة، نظر إلى الرمال المبلَّلة برذاذ الموج الهادر كمن ينظر إلى حشرة مَقيتة. صوت الرياح أيضًا كان مُقلِقًا، يشبه كثيرًا زئير الأسود الجائعة، لم يساعده هذا الصوت على الاطمئنان بل زادَ من هلعه، ولم يفهم من أيِّ نبعٍ تغرف حبيبته هذا القدر من الشعور بالأمان!

- هيَّا، لا تَكُن سخيفًا!

متوترًا قال وهو ما زال يقف على الجانب الآخر من السور:

- تعرفين أنني أخاف من البحر.

- ما لك يا زين؟! هل قلت لكَ إننا سنسبح في المياه الآن؟ سنظلُّ هنا على الشاطئ، إنها ليلة ميلادك! أريد أن أريك شيئًا، تعالَ.

لم يرِد أن يكسر فرحتها. تردَّد طويلًا ثم قرر أن يطاوعها بشرط أن يظل حذرًا.

قفز من فوق السور إلى الرمال الباردة المخلوطة بالحجارة الصغيرة، وأقماع الذرة الجافة، وعلب المثلجات الفارغة. أمسكت يديه برفقٍ، وقد ساورتها نشوةُ المغامرة، تقدَّمت خطوةً فتراجع إلى الوراء بخوف. ابتسمت في دلال تطمئنه:

- لا تخَفْ، سنقف هنا.

وأشارت إلى نقطة قريبة لا يمسُّها موج البحر.. فيها الرمال جافة، والموج يحاول أن يطالها فيفقد طاقته قبل أن يصل إليها.

- إلى هنا وكفى. أرجوكِ، هذا يكفي.

قالها بعصبية وتوتر، فطاوعته. وقفا أمام الشاطئ ينظران لأبعد نقطةٍ فيه، وما أشبه منظر البحر وقتها باليوم. كان غارقًا في العتمة ولا نهاية له. ليلتها شعر بانقباضة في صدره، هي ذاتها التي يشعر بها الآن.. غير أن صوت حياة المفعم بالبهجة خفَّف من حدة توتره وقتذاك.. أخذت تغني له:

«شايف البحر شو كبير.. كبر البحر بحبك».

نظر إليها طويلًا في دهشة قبل أن يقول:

- كان يمكنك أن تغني لي نفس الأغنية في المقهى، وكنت سأصدقك، كنتِ ستكسبين التحدي بسهولة.

لمعت عيناها وخرجَ صوتُها دافئًا:

- ولكن لن تشعر بمدى حبي لكَ إلا إذا رأيتَ بنفسك، انظر.

وأشارت إلى بعيد تريد أن تريه حجم البحر الهائل، ولكن اهتاجت موجة عالية فجأة؛ لسبب لا يعلمه أحدٌ سوى القمر الذي بدا وكأنه كان يعرف ما سوف يحدث، اندفعت الموجة باتجاههما لتغرقهما وتغرق الشارع الرئيس والسيارات القريبة من الشاطئ، بينما نشرت رذاذَها المالح للجانب الآخر من الطريق، لدرجة أن روَّاد المقهى الجالسين على الكراسي الخارجية قد شعروا بهذا الرذاذ يداعب وجوههم ويترك أثرَه بخفة على ملابسهم.

- لا تخَفْ! لا تخَفْ!

صرخت حياة، وشغلُها الشاغل لم يكن خوفها من الموجة، بل من الفوبيا التي يعاني منها زين الذي فقدَ وعيه تمامًا.

لا يذكُر ما حدثَ بعدها سوى أنه استفاق فوجد حياة تبكي فوق رأسه، وتعتذر كثيرًا- شاعرة أنها فعلت جرم لا يُغتفَر:

- آسفة.. آسفة.. سامحني.. أول مرة أرى البحر يهتاج بهذه الطريقة.. لم أكن أعرف.

نظر حوله فوجد نفسه ممددًا على الرمال، وقد هدأت ثورة البحر بعد أن أغرقت ملابسهما والرمال من تحتهما. ليلتها لم يجنّ أحدٌ ليقترب من الشاطئ في هذه الليلة الشتوية سواهما.

- لهذه الدرجة تحبينني؟

قال مازحًا وهو ينهض، ينفض الرمال من فوق ملابسه التي ابتلت تمامًا. ضحكت حياة ومسحت دموعها، وحاولت أن تطيب من خاطره وأكملت غناءها:

- شايف السما شو بعيدة؟

ابتسامة عريضة ارتسمت على ملامحه قبل أن يقول ممازحًا:

- لا! ولا أريد أن أرى؛ فلنبتعد من هنا قبل أن يسقط نيزك فوق رؤوسنا.

وركضا بملابسهما المبتلة التي التصقت بجسديهما واتخذت شكله، في شوارع الشاطبي الرطبة. أوصلها إلى بيتها القريب، وفي مدخل العمارة، سرق منها أول قُبلة طويلة، جعلته يدوخ ويفقد اتزانه.

***

ها هو يقف في المكان ذاته، ولكن هذه المرة جاء عن

عمدٍ. ما زال يرتعب من الأمواج الغادرة، ومن البحر الهائج. ما زال يمقت صرير الرياح المخيف، وعتمة الليل تقبض صدره، ولكنَّ هناك شيئًا واحدًا قد تغير.. لم يعد يخشى الموت.

***

# قبل ١٢ ساعة

## - الساعة الأولى -

استيقظ زين الدين الحسيني مفزوعًا. لم يكن يحلم بكابوس مخيف، ولم تكن مُختَلَف هموم الحياة تشغل باله الآن. بل كان مستغرقًا في النوم عندما أتت الفكرة في باله فجأة: «لم يتبقَّ من الزمن سوى اثنتي عشرة ساعة!» هكذا قال لنفسه وهو يقفز من فوق فراشه مسرع الخُطى إلى الحمَّام.

سمع نداء أمه من الغرفة المجاورة، لكنه لم يرد. تمتم بغضب: «ليس لدي وقت لكِ الآن. لا أريد أن يكلمني أحدٌ اليوم.. اتركيني وشأني.»

في الحمَّام وقف مضطربًا أمام المرآة، أخذ ينظر إلى وجهه وملامحه، وكأنه يرى هذا الوجه للمرة الأولى. دوامات من الحيرة تسبح في عينيه البنيتين الضيقتين، وخطوط عريضة بجوار عينيه تشي بأن صاحب هذا الوجه ذو قلب مهموم. شعره الأسود الحائل إلى الرمادي متوسط الطول، مهذَّب ومخفَّف من الجانبين. تحسَّس لحيته النابتة كصبار شائك بطولِ وعَرض ذقنه، شعر كأن جسدَه يرتعش، إحساس غريب آتٍ من قلبه الخائف. «كيف نمت كل هذا الوقت دون أن أشعر؟!» قالها لنفسه وهو مغتاظٌ من عقارب الساعة التي تركض وكأنها في سباق مع الحياة.. «ماذا يجب عليَّ أن أختار؟ لماذا وُضِعت في موقف كهذا؟ ولماذا أنا بالذات دون الجميع؟!»

احمرَّ وجهه عندما شعر بالضغط يعتصر أعصابه، وفتح

الصنبور ليبرِّد من سخونة وجهه الغاضب بالماء الذي كاد أن يتجمَّد من انخفاض درجة الحرارة. بعدها همس لنفسه:

«يجب أن أهدأ، يجب أن أفكر جيدًا. الذعر سيضيع الوقت بدون فائدة، والقرار يجب أن يكون حاسمًا. والليلة.. بل الآن».

انتهى من غسل وجهه وظلَّ يأخذ شهيقًا عميقًا فزفيرًا، ثم عاد مرة أخرى إلى غرفته دون أن يلتفت لنداءات أمه المتكررة. أغلق باب الغرفة خلفه بعنفٍ واستلقى على فراشه، أغمض عينيه. «الآن.. فكر جيدًا. إما أن تعيش عرضة للجنون في أيِّ لحظة وتعيش عالة على الجميع، وإما أن تنهي حياتك قبل الثانية عشرة مساءً لتضع حدًّا لكل هذا الصراع.. ما زال أمامك اثنتا عشرة ساعة.. ما زال.. لا.. مضت عشر دقائق من الساعة الأولى بالفعل.. لا لا.. إياك والارتباك. فكِّر بهدوء.. لماذا قبل الثانية عشر بالذات يا زين؟ سؤالٌ جيدٌ. لأنك لو لم تفعلها في وقتها.. لن تفعلها أبدًا. أنت تعرف نفسك..»

مرة أخرى صار يهدِّئ نفسه، يأخذ شهيقًا بعد زفيرٍ وهو مغمض العينين. هذه الطريقة كانت تُشعِره بالراحة فعلًا لبعض الوقت. وبدلًا من أن يفكر في القرار الصائب، سرح فكره ورأى نفسه قبل ثلاثين عامًا من الآن، عندما كان عمره عشر سنوات.. تذكَّر عندما كانت أمه (صالحة) ما زالت جميلة، نَضِرةً وعفيَّةً. كانت دائمًا ما تتفاخر بعدد المتقدمين لطلب يدها، قبل أن تتزوج من (إبراهيم) أبيه. «كل جاراتنا زارونا بلا استثناء، الذين

لديهن أبناء من عمري، ليطلبن يدي، وكنت أرفض. ماذا أقول؟ إنه الحب يا زين. الحب الغبي الذي فعل فيَّ ذلك. أتعلم؟ لقد ندمت. لن تفهم معنى الندم الذي يكوي الصدر إلا عندما تكبر.. عندما تكبر يا زين، لا تفقد عقلك مثل أبوك، فالنساء لن يحتملن رجلًا فاقدًا لعقله».

قالت له ذلك ثم بكت بكاءً مريرًا، وضمته إليها فشعر بصدرها وهو يعلو ويهبط بعنفٍ وقوة، تساءل في نفسه وقتها، ما الذي يمكن أن يمر به في حياته، يجعله يبكي لدرجة أن يظل صدره يعلو ويهبط بحدة هكذا؟!

كان يعرف أن هناك مشكلة كبيرة.. مشكلة لا تُشبه مشاكل أصدقائه في المدرسة، لكنه لا يفهمها. كلما ذهب إلى المدرسة نعتوه بـ: «ابن المجنون» و«ابن العاهرة». لكنَّ أباه علَّمه ذات مرة أنه إذا تعرَّض للأذى في المدرسة، يجب عليه ألا يرد بأذى مماثل، وإلا ضاع حقه، بل عليه أن يتوجَّه فورًا إلى المدير أو أحد الأساتذة ويحكي له ما حدثَ. وكذلك كان يفعل. في كل مرة كان يأخذ حقَّه بأن يطلَب ممن سبَّه استدعاء ولي أمرِه، أو فصله وحرمانه من الحضور يومين. وكان ذلك يُشعِر زين بأنَّ المدرسة عادلة، وأنه طالما لم يخطئ، سيأخذ حقه. لم يكن يعرف أن الدنيا ليست مثل مدرسته، وأنه يمكن أن يُعاقَب، إذا أخطأ وإذا لم يخطئ، وأنه يُعَاقَب الآن، ولا يعرف الذنب الذي اقترفه ليستحق عذابًا كهذا.

شوارع الشاطبي الداخلية، والتي لا تبعد كثيرًا عن البحر، ضيقة وحميمية، رطبة وباردة، مزدحمة بأصحاب الحكايات التي لا تُصَدَّق، والمآسي التي تثير العَجَب،

والحواديت التي يعجز مؤلف بارع أن يحبكها في رواية. الجميع يعرفون بعضهم البعض. بالذات في الشارع الذي تقبع فيه عمارة الحسيني كوَحشٍ نائمٍ، مبنى قديم يتألف من ثلاثة طوابق، من المفترض أنها مطلية بالأبيض لولا بقعٌ رمادية كبيرة افترشت المساحة، وأجزاء متآكلة كشفت عن طوب أحمر وبقايا إسمنت متحجر.

العمارة كانت ملكًا للجد.. «الحسيني الأكبر» والذي كان يعمل تاجرًا للحرير منذ نعومة أظافره، وقد ورثَ هذه التجارة عن أجداده، واستطاع أن يجمع المال الكافي بعد رواج تجارته، ليبني عمارة صغيرة له ولأبنائه. كان في الخامسة والثلاثين من عمره عندما احتفل بهذا الإنجاز، وأخبر زوجته أنه سيخصص الطابقين الآخرين لولده إبراهيم وابنته حليمة. صار محط أنظار الجميع من أترابه آنذاك، قبل أن يتم الأربعين، ثم يصيبه الجنون.

لم يعد أحدٌ يسكن الطابق الأول، الذي يحوي شقة الجد الكبير. أغلقت الشقة على ذكرياتها الأليمة بقفلٍ صَدِئ ثقيلٍ، ولم يجرؤ أحدٌ على فتح بابها مرة أخرى. أما إبراهيم فكان يسكن مع أسرته الصغيرة في الطابق الثالث، وتحتهما كانت تسكن العمة حليمة. الابنة الوحيدة للحسيني الكبير، والمرأة التي ورثت المرض في الأربعين من عمرها، تمامًا مثل أخيها وأبيها، وأجدادها جميعًا..

« ما الذي يحدث لعائلة أبي يا ماما؟» طرحَ زين هذا السؤال الذي حيَّره كثيرًا وشغل باله على أمه التي وقفت في المطبخ شاحبة الوجه متأففة. كانت مشغولة في مزج زيت الخروع الساخن مع عصارة حبة البركة في صحن،

مُستخدِمة ملعقة خشبية لتقلب هذا المزيج بعصبية.

نظرت صالحة إلى ابنها ذي العشر سنوات نظرةً لا ينساها مهما مرت السنون. نظرة حب ولوم. غضب وشفقة، ولمحة خوف.

حاولت أن تتهرب منه، لكنَّ إلحاحَه الطفولي ونظرته البريئة أجبراها على الإجابة؛ خرج صوتها خافتًا:

- يصيبهم الجنون.

- ما السبب؟

تمالكت أعصابها قدر استطاعتها:

- مرض يا زين، مرض عقلي.

- ما اسمه؟

علت نبرة صوتها حين أيقنت أنه لن يتركها:

- زين! أنا مشغولة.

- ما اسم مرض المجانين هذا؟

هتفت بحدَّة:

- الماليخوليا السوداء يا زين! ارتحت؟

- سأصاب مثلهم يا ماما؟ صح؟

نظرت له طويلًا نظرةً أربكته. مسحت على رأسه قبل أن تقول:

- لا أحب هذه السيرة، اسكت يا زين.

لكنَّ نظرات الفضول التي كانت تقفز من عينيه الصغيرتين جعلتها تضيف في محاولة لإنهاء الحوار البغيض لقلبها:

- اطمئن، أنت لن يصيبك شيءٌ.

- لماذا أنا الوحيد الذي لن أصاب بالمرض؟ ألستُ حفيد الحسيني وابن إبراهيم؟

نفخت في ضجر، أخذت الصحن متوجهةً إلى غرفة زوجها:

- لو لم تسكت سأعاقبك.

فسكت، وأسئلة تتكاثر في رأسه الصغير.. « كم عمر أبي الآن؟ أربعون! هل أسألهم متى جنَّ جدي؟ أو عمتي حليمة؟ لا.. ستصرخ أمي في وجهي، وتحرمني من ألعابي.. إذًا الخطر يبدأ عندما أتم الأربعين؟ ولكن ليس من الضروري أن أجن في الأربعين بالضبط؟»

دخلت صالحة إلى غرفة نومها، تحمل في يدها الصحن، وزبن يتبعها بفضولٍ، يريد أن يعرف مدى تأثير هذه الوصفة على أبيه المعذَّب.. هل ستنفع؟ أم ستبوء بالفشل كغيرها من الوصفات الطبيعية التي تحضرها أمه دومًا من عند العطار، وتدعي أنها ستخفف من حدة مزاج أبيه؟

- هل طبختِ لي شوربة يا حبيبتي؟

سألها إبراهيم وهو جالسٌ على فراشه، مرتديًا جلبابًا رماديًّا واسعًا وينظر في عينيها بحب، وقبل أن تجيبه، وبدون سبب يُذكَر، تبدلت نظرة الحب في عينيه وتحولت إلى تحديق مرعب، وقد نفر عِرْق أحمر بعرض عينه اليمنى، وانقبض جفنيه للحظة قبل أن يصيح في وجهها:

- هل وضعتِ سمًّا في الشوربة؟

لم ترد صالحة، وكأنها لم تسمع شيئًا، فاستمر في صياحه:

- انطقي!

اقتربت منه ومدت يدها تريد أن تلمس وجهه، ولكنه بدأ يصرخ، ويضرب رأسه بكلتا يديه:

- لماذا تريدين قتل زوجك؟ تظنين أنني سيئ؟ لقد كنت...

ربتت بكفها على كتفه وخرج صوتها هادئًا رغم توتر الموقف، كأنها معتادة على تلك النوبات المفاجئة:

- شششش.. لا تخَف، اهدأ. ليست شوربة، بل زيت خروع، سأدهنه على رأسك وصدرك؛ سيُشعِرك بالراحة.

لكنَّ عينيه ازدادت اتساعًا، بدت نظراته زائغة:

- كيف؟ خروع! لا..

وضع يديه على رأسه وهو ينظر للأرض مرتعدًا:

- لا أريد.. أنا خائف. اخرجوا.. لا أريد أحدًا. كلكم تريدون التخلص مني.

يذكر زين جيدًا عندما بكى والده وقتذاك، عندما نجحت أمه في إقناعه أن يمدد جسده الهزيل على الفراش، ثم غمست يدها في مزيج الخروع وحبة البركة، دهنت رأسه ورقبته وصدره بالسائل اللزج الساخن. كان يبكي مثل طفل يتيم فقدَ أمَّه للتو.

استسلم زين للفكرة المقيتة أنَّ أباه ليس مثل آباء أصدقائه؛ لأن آباءهم كانوا عاقلين، ولا تمر عليهم أوقات

يفقدون عقولهم فيها.. هم محظوظون بآباء أصحاء وأقوياء، لا يحدث وأن يتصرفوا أحيانًا مثل الأطفال، أو المجانين، أو المجرمين!

كان يعرف أيضًا أنه طالما كان من نسل عائلة الحسيني، فسوف يفقد عقله فور أن يتم الأربعين، ولكنه عندما كان في العاشرة، لم يكن يعرف أن كل شيء سوف يتغير في القريب العاجل، وأن كارثة ما سوف تحدث، ستجعله يتذكر دومًا هذا العام.

***

فتح زين عينيه مفزوعًا، ونظر للساعة المعلقة على الحائط «ما أغباك يا زين! مرت ساعة وأنت سارح في ماضيك.. ساعة كاملة؟ ولكن.. ماذا أفعل الآن؟»

شعر بالعجز التام. لا يعرف ما الذي يتوجب عليه فعله. هل يعيش اليوم بطريقة عادية؟ هل يتجاهل أنه سوف يتم الأربعين الليلة؟ وأن هناك احتمالًا أقرب إلى المائة في المائة أنه سيفقد عقله مثل عائلة الحسيني كلها؟ أم ينفِّذ الفكرة التي صارت تراوده منذ طفولته وحتى الآن؟ «لا أعرف.. لقد وضعتني الحياة، دونًا عن بقية البشر، بين خيارين أصعب من بعضهما البعض. إما أن أفقد عقلي وأعيش معذبًا ومهانًا، وإما أن أقتل نفسي قبل أن أتم الأربعين.. ما زال أمامي إحدى عشرة ساعة من الآن».

لم تكف أمه عن مناداته. كلما سمع صوتها أغمض عينيه وأخذ شهيقًا فزفيرًا. شعر كأن كل صوت يسمعه بمثابة سوط، يلهب أعصابه ويتلفها تمامًا.

ثم جلس على الأرض واتخذ وضع السجود.. سجدَ وهو يضغط جبينه إلى الأرض بقوة، يريد أن يشعر بمعية الإله، ثم يضغط جبينه بقوة أكثر لعلَّ الأرض تسحب ذلك الصداع الأليم الذي يثقل رأسه وتمتصه في أحشائها وتترك دماغه خفيفًا وفارغًا من حيرة الفكر ومرارة الألم..

«يا رب! سامحني على ما سأفعله.. كل الأبواب مغلقة وليس لدي خيار».

***

«ثم قال كل واحد لرفيقه: «هيَّا نلقِ قُرعة لعلنا نعرف من جرَّ علينا هذا البلاء». فألقوا القُرعة، فوَقَعَت على يونان.

سِفر يونان

# - الساعة الثانية -

الوقت يمضي دون توقُّف، بلا رحمة، عقارب الساعة تأبى أن تترفق بما تبقَّى لزين من عقل في هذه الحياة، رغم ذلك غالبَ توتره وخوفه، ووقف في المطبخ يعِدُّ لأمه وجبةَ إفطار خفيفة. لم تَعد تستطيع الحركة بسهولة، كلما تحرَّكَت تسارعت دقات قلبها بطريقة جنونية، وعظامها الهشة توشك على التكسر. تقضي أغلب وقتها ممددة على فراشها أمام شاشة التلفاز الصغيرة، تشاهد الدراما المصرية أو الهندية بأعين لا ترى بوضوح، وبقلب مثقل بالهم والذكريات الأليمة، وبإحساس منفصل تمامًا عن الزمن من حولها. تنام في أي وقت، وتستيقظ في منتصف الليل، أو ينتابها القلق فجرًا، وتظل تنادي وحيدها ليجلب لها القليل من الماء أو قطعة خبز صغيرة.

«ها أنا أضيع دقائق من عمري في تحضير الطعام، وكأنني سوف أعيش للغد مثل الجميع! ولكن ماذا أفعل؟ إنه الواجب»، تمتم زين وهو يدهن الخبز بالجبن قليلِ الملح، وقد حضَّر كوبًا ساخنًا من الشاي، وغمس فيه عود نعناع طازجًا، وضعهما في صينية نحاسية صغيرة وتوجَّه بها إلى غرفة أمه. وضع الصينية على الكومود المجاور لها، ثم جلس على كرسي قريب من فراشها، وهو ينظر لخصلات شعرها الفضية، ووجهها الأصفر الذي ما زال محتفظًا بمسحة من الجمال.

- تسلم يا حبيبي.. الله يحميك.

رمقها ببرودٍ:

- يحميني؟

- يحميك من كلّ شرٍّ.

نظر لها ساخرًا:

- نسيتِ تاريخ اليوم؟

- مستحيل أنسى ليلة ميلادك، تذكُر يا زين عندما كنت أصنع لك قوالب الحلوى؟ صحتي لا تسعفني الآن، ولكن سنحتفل. سنقضي معًا أجمل ليلة.

***

«زين.. انظر ماذا أحضرتُ لك، مسدس لعبة، سيعجبك كثيرًا..» قال أبوه في ليلة ميلاده قبل ثلاثين عامًا من الآن.

«تعال، خُذ..» اقترب زين مبتهجًا باللعبة الجديدة، إلا أنه حينما مدَّ يده ليأخذها، انقلبت ملامح وجه أبيه بطريقة مخيفة، وقد أظهر غضبًا عارمًا تجاه ابنه فجأة. كانت أمه مرتدية ثوبًا جميلًا، أبيض وبه زهور وردية رقيقة، تقف أمام طاولة السفرة، تشعِل عشر شمعات في قالب الحلوى الذي صنعته بنفسها، وعندما سمعت صراخَ زين وأنينَهُ، كان إبراهيم قد بدأ بخنق الولد من رقبته بكل ما أُوتيَ من قوة يريد قتله. هرعت مهرولةً إلى طفلها؛ تريد أن تخلصه من يد زوجها غير مضمون التصرفات، دون أن تستوعب ما الذي أغضبه. هتفت بحِدَّة:

- اترك الولد.. أجننت؟

نظر لها للحظة كأنه لا يفهم ما تقول، ثم صاح في وجهها:

- ابنك يهدِّدني بالمسدس. يظنُّ أنني ضعيف!

من جديدٍ هتفت وهي تدفعه بعيدًا عن ابنها:

- أجننت! ماذا تقول؟!

ظلت تدفعه حتى نجحت أخيرًا في إبعاده عن زين، وهكذا ظلَّت ليلة ميلاده هذه تذكِّره بما جرى بينه وبين والده.

***

«أذكُر يا أمي.. أذكُر عندما كنتِ تحضرين لي قوالب الحلوى..»

مدَّ زين يده بشطيرة الجبن لأمه المسنَّة، وقد تمكَّن الحزن منه. تناولتها صالحة بيدٍ مرتعشة، قرَّبتها من فمها، وقبل أن تقضمها قالت:

- لا! أنت تذكرتَ شيئًا سيئًا يا زين؛ عيناك حزينتان.

صرخ غاضبًا وفاقدًا صبرَه، قام عن الكرسي مندفعًا:

- لماذا تتعاملين وكأنه لن يحدث شيءٌ الليلة؟! تعرفين جيدًا أنني مُعرَّض لفقدان عقلي. بعد ساعاتٍ قليلة سأتم الأربعين وأصير عرضةً للجنون في أي وقتٍ.. بعدَ يومٍ، بعدَ سنةٍ! ومع ذلك تستيقظين متأخرة في الثانية عشرة ظهرًا، وتطلبين الطعام وتأكلين بشهية مفتوحة! ثم تتكلمين عن قوالب الحلوى وليلة جميلة سنقضيها معًا، وتسترجعين الذكريات التي تحاولين إيهامي بأنها ذكريات جيدة! أيُّ ذكريات تلك؟ ذكرى محاولة قتل أبي لي لأنه يظن أن المسدس اللعبة الذي اشتراه بنفسه من محل الألعاب، حقيقي؟ أم ذكرى الفضيحة التي كنت أحملها فوق ظهري طوال سنوات المدرسة؟ وما زلتُ موصومًا

بها حتى الآن؟ «ابن الحسيني المجنون.. عائلة الحسيني المجانين.. أُم زين العاهرة» لا أحد في الشاطبي لا يعرف معلومة مخجلة كهذه عن ماضيكِ! أم لعلِّي سأتذكَّر خيانتك لأبي بحجة أنكِ سئمتِ منَّا جميعًا؟ ما الذي تريدينني أن أذكُره في ليلةٍ مشؤومة كهذه؟ استوعبي أني سأتم الأربعين الليلة.. استوعبي أن ابنك انتهى. لا تعيشي في أوهامك كمرضى ألزهايمر!

لم يعطها فرصةً لتردّ. تركها دامعة العينين تحاول صياغة جملة فتقف على لسانها قبل أن تنطق بها بصوت مسموع. خرج إلى الصالة، ثم صرخَ بصوتٍ عالٍ، خرجت الصرخة من أعماق روحه، سمعها الرجال على المقهى أسفل العمارة. ولكن ذلك لم يُثِر استغرابهم، فجميعهم معتادون على صرخات جنونية تجيءُ بين الحين والآخر من عمارة الحسيني، ويعرفون أن زين ابن الحسيني سوف يتم الأربعين الليلة.. بل إن الرجال في المقهى قد تراهنوا على ثلاثمائة جنيه يأخذها من سيخمِّن الوقت الذي سيفقد فيه زين عقلَهُ. أسمنُهم قال إنه سيفقد عقله فورَ أن يتم الأربعين، في الساعة الثانية عشرة تمامًا هذه الليلة. أما الرجل الأصلع ذو الرأس التي تلمع وتنعكس عليها الصور كمرآة نظيفة، مدمن القهوة السادة، فسخرَ منه وقال:

- وهل عقله سيعرف أنه تمَّ الأربعين في الثانية عشرة أيها الغبي؟ أنا أظن أنه سيفقد عقله بعد ليلة ميلاده بشهر.

وقال ثالثهم والذي لا يترك السيجارة من يده:

- أما أنا فأعتقد أنه سيفقد عقلَه بعد عامٍ من الأربعين مثل أبيه. لماذا لا نلقي قرعة؟

ردّوا في نفَسٍ واحدٍ:

- كيف؟

- كلُّ واحدٍ منَّا يكتب متى سيجن زين، ونقترع.. والورقة التي نختارها..

قاطعه أسمنهم:

- يفوز صاحبها بثلاثمائة جنيه؟

- ولكن بشرطٍ.. أن يجن زين في الوقت المكتوب بالورقة بالضبط.

قال أحدهم:

- هذا تعجيز يا رجل.

وقال الآخر:

- كيف سنخمن الوقت بالضبط؟ ولكن موافق.. دعونا نتسلى قليلًا.

وهكذا ظلت المراهنات مطروحةً على طاولة المقهى الصغير أسفل عمارة الحسيني، دون أن يعلم أحدٌ حقيقة ما سيحدث.

***

«وكأن لي ذكرياتٍ جيدة في هذا البيت!»..

قال زين في نفسه بعد أن حاول السيطرة على غضبه. جلس على الأريكة الأرابيسك ممددًا ظهره على المسند، وفاردًا قدميه على طاولة المنتصف. « كم مرة يجب أن أهدِّئ من روعي وأتنفس بعمقٍ حتى أفكر جيدًا؟! لن

أترك نفسي عُرضةً للجنون. لن أقضي عامًا تلو الآخر وأنا منتظر أن يتمكن المرض منّي. لا.. لن أسمح أن يروني ضعيفًا غير واعٍ.. سأقتل نفسي. حرام؟ ما جدوى التفكير في ذلك؟ كلتا الحياتين جحيم. كل الاختيارات سيئة. لا يوجد خيار مُرضٍ ومريح. وأنا جبان.. هل أخاف من الموت؟ لماذا كل هذا التردُّد والتفكير؟ أَلَمْ أقرِّر قبل أعوام من الآن؟ وعَدتُ نفسي أنني سأنهي حياتي في تمام الثانية عشرة من ليلة ميلادي الأربعين؛ لأنني لو لم أفعل ذلك في الساعة المحددة، أنا واثق أنني سأظل أؤجل انتحاري حتى أجن. لو جننت سأنتحر ولكن غصبًا عني، ولن يكون القرار قراري. لن أموت بالصدفة.. لن أموت بسبب جنوني. سأقرر وسأنفِّذ قراري.. بل قررت منذ زمنٍ بعيدٍ، وحان وقت التنفيذ..»

ثم سمع هاتفه يرن في جيب سرواله. «آه.. إنه ماجد، سوف يسألني لماذا لم أصل إلى الشركة حتى الآن». ابتسم ساخرًا من الموقف برمَّتِه. أمُّه تريد أن تحتفل بيومِ ميلاده، ومديره في العمل يريدُه أن يحضر دوامه بشكل اعتيادي مثل كل يوم..

«كلُّهم يعاملونني كشخصٍ طبيعيٍّ.. مَن يعرف ومَن لا يعرف.. صحيحٌ.. لا أحد سيشعر بأزمتك طالما لم يوضع في الموقف نفسه. حتى أمك!»

نظر زين لشاشة هاتفه مترددًا، هل يردُّ؟ وماذا سيقول؟ لم يستطع أن يحدِّد ماذا سيفعل بَعدُ. ففضَّل ألا يجيب، حتى يقرر ما الذي سيفعله في الساعات القليلة المتبقية من حياته.

ثم ما إن توقف جرس الهاتف، حتى رنَّ مرةً أخرى، ولكن هذه المرة لم يكن مديره هو المتصل، بل حبيبته السابقة (حياة)، جاءه صوتُها متوترًا:

- زين! لماذا لم تأتِ حتى الآن؟

لم يرد؛ فحمل صوتها قلقًا واضحًا:

- زين؟

ردَّ باقتضاب:

- نعم.

تجاهلت لهجته الرسمية:

- ستغيب اليوم عن العمل؟

لم يستطع أن يضغط عليها أكثر من ذلك، خرجَ صوته هادئًا لحدٍّ معقولٍ:

- لم أقرِّر بَعدُ. كيف حالك؟

صمت قليلًا، وقبل أن تجيب أردف سائلًا:

- وزوجك؟

قالت بعدما أكدت لها أسئلته صِدقَ حدسها الأنثوي:

- بخير يا زين! ماذا بك؟

صمت قليلًا قبل أن يخرج زفيرًا طويلًا، ويقول:

- لا شيء..

وأغلق الهاتف..

«لماذا أجبت على الهاتف يا غبي؟ أقلقتَها دون داعٍ. ستظل تلح في السؤال ولن تعرف بماذا تجيبها..»

قال لنفسه وقد كتم الضيق أنفاسه، وشعر بالجوع يمزق معدته، تذكَّر أنه منذ البارحة، لم يأكل كسرةَ خبزٍ ولم يروِ عطشه نقطة مياه واحدة.. «مضطر أيضًا أن أنشغل بمعدتي قبل موتي بساعاتٍ قليلة!» قال في نفسه، وتوجَّه إلى المطبخ وفي نيته أن يأكل أيَّ شيءٍ لا يأخذ وقتًا في التحضير.

«وليكن.. سآكل زبدة الفول السوداني بالملعقة، مثلما كنت أحب.. لماذا لم أفعل ذلك طوال حياتي؟ لماذا كنت أضعها فوق الخبز رغم أنني لا أفضِّل ذلك؟ آه.. لم أفعل هذا فقط، بل كنت أؤجل أكل الحلوى المفضلة لدي، لشدة حبي وحماسي لها، ثم بعد ساعة أو اثنتين، أجد أن أحدًا غيري قد أكلها. لطالما طبَّقت هذا المبدأ على كل شيءٍ في حياتي.. ألم أترك حبيبتي ليتزوجها غيري؟ لديها أطفال بحجمي الآن. أنت نادمٌ يا غبي؟ لم يعد هناك وقت لتحقيق أي شيء. لم يعد هناك وقتٌ لتعديل المسار، وتصحيح الأخطاء. بل لم يعد هناك وقتٌ أيضًا لتحضير الإفطار». حدَّثته نفسه قبل أن يأخذ علبة زبدة الفول السوداني وملعقةً، ويجلس أمام التلفاز. فتح قناة أغاني، فيها المطرب يغني ومن حوله الفتيات يرقصن بسعادة وإغواء..

«وما المشكلة لو قضيت بضع دقائق وأنا أستمتع بمذاق الزبدة؟ وماذا لو قضيت الساعات المتبقية من حياتي في اللهو ومشاهدة التلفاز؟ ماذا سيحدث؟ لا شيء.. لا شيء مطلقًا».

ثم بعد أن أكل ملعقتين فقط من الزبدة، نهض مفزوعًا عن

الأريكة وهرول إلى غرفته. فتح خزانة ملابسه، وقبل أن يختار ما سيرتديه قبل مغادرة البيت، ألقى نظرةً خاطفةً على نفسه في المرآة الطويلة بجوار الخزانة، وجد أنه ما زال مرتديًا السترة الرياضية السوداء وبنطالًا بنفس اللون. تأفف ساخطًا ثم التقط معطفًا ثقيلًا، أسودَ طويلًا، ارتداه فوق ملابسه بسرعة.. «لا وقت لاختيار أي شيء.. ومن يهمه شكلي من الأساس؟ خصوصًا هذه الليلة.. فليتذكروني بهذا الشكل» تمتم بينما كان يُسرع الخُطى باتجاه الباب.

- يا زين.. قبل أن تخرج...

إلا أنه سمع نداء أمه.. «ما بالها مزعجة أكثر من أي يومٍ مضى؟! ألا تعرف أنه ليس لدي وقت؟!»

عاد بسرعة ليقف أمام باب غرفتها وقال متأففًا:

- قولي بسرعة.

- أين تذهب؟

- قولي ما تريدين قولَه بسرعة.

- أريد...

قال وقد علت نبرة صوته:

- ها؟؟ ماذا؟

.....

- لا ليس لدي وقت لأفعالك هذه.

ثم تركها متجاهلًا نداءها هذه المرة، وخرج من الشقة إلى الشارع.. إلى مصيره المحتوم.

# - الساعة الثالثة -

وبينما كان يهرول في شوارع الشاطبي المكتظة بالمارة، متجهًا إلى الشركة، غير واعٍ بالتحديد لماذا قرر أن يذهب، تذكَّر فجأة أنه نسي هاتفه في المنزل؛ فتوقف عن الركض ونظر حوله. اكتشف أنه لم يركب سيارته أيضًا ولم يأخذ مفاتيحه. «كنت تنوي الذهاب إلى الشركة سيرًا يا غبي لتضيع ساعتين في الطريق؟ ماذا سأفعل الآن؟ أعود وأجلب الهاتف أم أتركه؟ لقد قطعتُ مسافة ليست قصيرة. لعلِّي سأحتاجه.. بل أنا مضطر للرجوع لآخذ مفاتيح السيارة.. هل بدأت أن أفقد عقلي من الآن؟ أم أن هذا نتيجة التوتر؟ يجب أن أهدأ».

ولكنه لم يهدأ.. صرخ غاضبًا عندما شعر أن وقته يضيع هباءً بسبب استعجاله؛ فنظر المارة إليه مستغربين.. تدارك نفسه وقرَّر أن يعود ليجلب الهاتف. «يوم أسود».

وبعد أن عاد للشارع الذي يقطن فيه، وقبل أن يدخل من باب العمارة، لمح في أعين الرجال الجالسين في المقهى، نظراتٍ حماسية مترقبة. وهو مقهى صغير بجوار مدخل العمارة، به طاولتين داخل المحل ضيق المساحة، وخمس طاولات خشبية صغيرة بطول الرصيف الخارجي، المطل على شارع ضيق وصفٍّ من العمارات القديمة، ومن تحتها سيارات المُلَّاك مركونة لتضيق مساحة الشارع إلى النصف. ويفضل الثلاثة رجال، وهم من سكان العمارات المقابلة تمامًا لعمارة الحسيني، أن يجلسوا إلى طاولة بعينها من بين الطاولات الموضوعة على الرصيف..

لم يعرف زين أبدًا ماذا يعمل هؤلاء الرجال فيصير لديهم هذا الوقت اللا نهائي من ساعات اللعب والسمَر.. وعندما سألهم بشكل مباشر مرة أجابوا بإلقاء النكات على وظيفته تلك التي تأخذ معظم وقته ومع ذلك لا تدرّ عليه الأموال الطائلة. يسألهم عن أي شيء فيجيبون بنكتة أو مزحة، وبشكل هزلي ساخر وغير جاد.. فصار يعاملهم كرجال افتراضيين من عالم موازٍ لا يمت للواقع بصلة.

تهامس الرجال فقال زين فاقدًا صبره:

- لا تنظروا إليَّ هكذا! لم أفقد عقلي بعد.

ضحكوا وتصنعوا عدم الفهم..

- تفقد عقلك؟

- أعرف أنكم تعرفون.

قال الأصلع وهو يرتشف من فنجان قهوته السادة:

- كل سنة وأنتَ طيب.. نحن تراهنًا.

فلكزه النحيل وقد خرجت سحابة دخان رشيقة من فمه:

- تعترف له! دماغك هذه لا تفكر؟

ردَّ السمين وهو يلتهم شطيرة فول بالخلطة الإسكندراني، وقبل أن يبلع ما مضغه:

- ما المشكلة؟ هو يعرف أننا نعرف، ونحن نعرف أنه يعرف أننا نعرف.. نعم تراهنًا.

ضحك الثلاثة بينما تجاهلهم زين ودلف إلى العمارة، وأثناء ارتقائه السلم مرَّ على الدور الأول الذي كان يقطن

فيه جده. نظر إلى الباب الموصَد بالقفل الغليظ بغضبٍ وقال في نفسه: «أورثتنا المرض. لماذا تزوجتَ وأنجبت طالما أنك تعرف جيدًا أن نسلك معيوب؟» وارتقى دورًا آخر وهو يقول في نفسه: «إنها الأنانية التي أعمَت الجميع.. يريدون أن ينجبوا بأي ثمن، يريدون أن يتزوجوا ويتكاثروا تحت أي ظرف. ولو أخبرهم أحدٌ أن الجنين سيخرج بلا أذنين أو ناقص ساق وذراع، ستغلبهم شهوة الإنجاب وينجبونه رغم ذلك. ولو عانوا من الفقر المدقع، سينجبون أطفالًا شحاذين، يسرِّحونهم في الإشارات.. الأولاد يبيعون المناديل، والبنات يبعن أجسادهن. المهم أن ننجب! نريد أن ننجب. إن شهوة الإنجاب تدمِّر أعصابنا، سننجب جيلًا مشوهًا ونموت ونتركهم يصارعون لعنة الحياة.. هكذا يفكِّر هؤلاء الأوغاد.. وهذا الرجل المدعو الحسيني الكبير، واحدٌ منهم. فقد عرفَ أن جده الأكبر مريض، وورَّث المرض له ولإخوته، ومع ذلك قرَّر أن ينجب أبي، وأبي الوغد، قرَّر أن ينجبني.. كان لدي كل الحق ألا أتزوج من حبيبتي، وأن أتركها.. كان لدي كل الحق.. لست نادمًا أيها الأوغاد. أنا الرجل الحقيقي والوحيد بينكم جميعًا.»

وقف في الطابق الثاني أمام باب عمته وقد امتلأ صدره بالحقد والغضب، قبل أن يقرر أن يدق الباب، فتستغرق هي وقتًا لتفتح له. وكان معتادًا على ذلك، فهي أيضًا امرأة مسنة، تصارع لعنتها -مرضها الموروث- وحدَها، بعد أن تجنب الجميع الاقتراب منها في شبابها، فعاشت وحيدةً منذ وعَتْ معنى الحياة.. وعمته تعتبر الفرد الوحيد

الذي تعايش مع المرض لعشرات السنوات دون أن تقتل نفسها. وهي الفرد الوحيد المتبقي من عائلة الحسيني غيره.

فتحت العمة حليمة الباب، وابتهجت عندما رأت زين، وكأنها تتوقع أن أحدًا غيره يمكن أن يطرق بابها، وكأنها تنتظر دائمًا زوَّارًا كثر!

- ادخل يا... يا زين.

- لا تتعبي حالك يا عمتي. أردت فقط أن أسلِّم عليكِ قبل أن أذهب. لا يوجد وقت لأدخل.

قالت وكأنها لم تسمع ما قاله للتو:

- اد.. ادخل يا.. زين.

فلم يدرِ بماذا يجيبها، ووجد نفسه قد دخل بيتها، دون إرادة حقيقية منه. مشت بخطوات بطيئة، منحنية الظهر، فتبعها، ثم جلست بهدوء على مقعد عتيق ذي قماش خشن متآكل، فجلس بجوارها وهو ينظر في ساعة يده.

- في الحقيقة يا عمتي، كنت متجهًا إلى الشركة.. تأخرت كثيرًا، ونسيت المفاتيح؛ لذلك عدت.

ابتسمت حليمة قبل أن تقول بهدوء:

- لماذا تشرح يا زين؟ أنا أعرف كل شيء.

- أريد فقط أن...

قاطعته:

- تودعني؟

اندهش زين من ردها، وكأنها بالفعل تعرف أنه ينوي قتل

نفسه الليلة!

- نعم.

وبنفس النبرة الهادئة قالت:

- لا تفعل.

رفع زين حاجبيه:

- لا أفعل ماذا؟

- ما يدور في رأسك.

- وما الذي يدور في رأسي يا عمتي؟ أنا فقط أردت أن أسلم عليكِ و...

قاطعته من جديد:

- للمرة الأخيرة؟

- لماذا تقولين ذلك؟

عاودها ذلك التلعثم مرة أخرى:

- أنا أعرف.. ولكن.. لا شيءَ مثلما تظن. انظر.. من.. زاوية أخرى..

ضحك زين بصوتٍ عالٍ، ضحكة مشحونة بالسخرية، ثم حاول أن يسكت احترامًا لعمته العجوز.

- الليلة ليلة ميلادي.. سوف أتم الأربعين.

تأملته حليمة طويلًا قبل أن تقول بصعوبة:

- إذًا، سوف تسترد.. عقلك.. الليلة يا زين.. عقلك الذي فقدته في العاشرة من عمرك.. أنا أذ.. أذكر جيدًا يا.. يا زين.

ابتسم زين ساخرًا، وقامت العجوز بصعوبة واقتربت منه، وبيدٍ مرتعشة مسحت على شعره الأسود الغزير، قربت شفتيها المنكمشتين للداخل من جبينه ثم طبعت فوقه قبلةً حانيةً، خرج صوتها يحمل حبًّا صادقًا:

- مجنوني الصغير.. مبارك عليك.. العقل نعمة، أما الحياة، فالنعمة الأعظم.

عقدَ زين حاجبيه، وخرج صوته يحمل حِدَّة لم يقصدها:

- أي عقل؟ أقول لكِ سأتم الأربعين!

شردت حليمة ببصرها بعيدًا:

- هناك باب.. باب لا تراه أنت. ستفتحه، وقتها.. سترى نورًا.

نظر زين نحوها مليًا دون أن ينطق، وأكملت هي حديثها:

- باب غير مرئي يا.. يا زين. ولكنني أراه بوضوح.. لا تتعجل الموت يا زين.. أنت.. أنت تطرق الأبواب الخاطئة.

نفدَ صبره بعدما علمَ أن المرأة المسكينة قد عاودتها تلك الحالة التي يعرفها جيدًا:

- عمتي.. سأذهب..

كأنها عادت من مكان بعيد، ثبتت نظراتها طويلًا على وجهه، ثم قالت من بين ابتسامة عريضة ارتسمت على ملامحها المتغضنة:

- لست.. لست قَلِقَة يا.. زين.. اذهب.. ستعود.

قام زين وهو موقن تمامًا أن امرأة تعاني مثلها، لن تتفوه

سوى بترهات مثلما فعلَتْ للتوّ. أي نعمة وأي عقل وأي حياة التي تبارك له عليهم؟ تركها وصعد إلى بيته، ووقف أمام الباب يدق الجرس مرات متتالية.

«هذه المرأة الخرفة.. تبارك لي أنني سأسترد عقلي أخيرًا، وتحدثني عن أبواب غير مرئية.. هه.. مستحيل أن أترك نفسي لأصير منفصلًا عن الواقع مثلها؟ بالطبع لا..» ثم ظلَّ يطرق الباب بكلتا يديه بقوة.. «افتحي.. ليس لدي وقت.. نسيت مفاتيحي.. أعرف أنه يوم أسود..»

وكان يعرف أن أمه ستستغرق وقتًا طويلًا لتفتح الباب.

***

السؤال الضبابي الذي يدفعني للجنون أحيانًا:

هل أنا المجنون؟ أم الآخرون؟

ألبرت آينشتاين

# - الساعة الرابعة -

ركب زين سيارته الـ «سكودا فليشيا» السوداء، وانطلق بسرعة مجتازًا الشوارع الضيقة، حتى خرج إلى الشارع الرئيس المطل على البحر، كان مزدحمًا كالعادة. «ابعد يا حيوان» صرخ من النافذة في وجه رجل يجر عربة خردوات، يقطع الشارع بالعرض معطلًا حركة السير، ومن ثم وجد الرجل وقد ترك العربة الخشبية الصغيرة على الرصيف، ثم وقف أمام السور الفاصل بينه وبين البحر ينظر إلى بعيدٍ.. لمح هذا المشهد قبل أن يتجاوزه بعدَّة أمتار. وتذكَّر والده في ليلة مشؤومة من ليالي المرض والجنون..

***

- البحر يريد أن يبتلعني.. البحر غدار، مرعب.. انظر يا زين إلى الموج القادم من بعيد، هذا الموج سيغرقني في يوم من الأيام، وسأموت..

- لماذا يا بابا؟ ألا تستطيع السباحة؟

- لا.. لا أريد أن ألمس مياه البحر؛ مالحة يا زين، تحرق الجلد.

- تحرق الجلد؟

- وإذا غمرتك تسرق أنفاسك. لا تلمس بقدميك رمال الشاطئ يا زين..

سكت زين وهو يفكر، ينظر إلى الشاطئ البعيد والمياه الفيروزية، وهي تفور على هيئة موج.. موج يلقي بنفسه

إلى الرمال الصفراء الناعمة وقد صنع رغوة بيضاء ذكَّرته بصابون الاستحمام. كان، هو وأبوه، واقفين خلف بوابة مدخل الشاطئ، ينظران بريبة وخوف، ويمسك زين يد أبيه بقوة.

- ولكن يا بابا.. أنا أرى.. انظر.. انظر هناك )وأشار بسبَّابته لنقطة بعيدة) هل ترى هؤلاء الأطفال السعداء؟ يسبحون في البحر، وهؤلاء الشباب أيضًا (وأشار بيده إلى الاتجاه الآخر) يبدو وكأنهم محبُّون للبحر.. هؤلاء جميعًا ألا تحرقهم المياه؟ لا يبدو عليهم الاستياء.

نظر إبراهيم إلى ابنه بعينيه البنيتين الحادتين وبشرته الخمرية وهو مستاء:

- لا أعرف! هؤلاء مجانين.. كلهم مجانين يحبون المجازفة. يعرِّضون حياتهم للخطر يا زين.. لا تفعل مثلهم..

- لن أفعل. أنا أخاف من البحر.

- خَفْ.. خَفْ يا زين. هذا البحر سوف يقتلني..

يومها عاد زين ليرتمي في حضن أمه ويبكي..

- البحر سوف يقتلني يا ماما.. لماذا لا نترك هذه المدينة، ونذهب إلى مدينة لا نرى فيها البحر كل يوم؟

- ما هذا الكلام يا حبيبي؟

ظلت تربت على كتفه وتطمئنه دون فائدة.. وكانت هي الليلة الأولى التي تدرك فيها أن زوجها إبراهيم قد تمكَّن منه المرض بلا شك.

مثله مثل أبيه وجِدِّه..

لم تكن تعرف ما الذي يتوجب عليها فعله، ولكنها كانت تعرف أن هذا اليوم آتٍ لا محالة.. ليلتها قررت أن تواجهه بالأمر، معتقدة أنه سيتفهم.

- إبراهيم.. أريد أن أتكلم معك لو سمحت.

وكان إبراهيم يبدِّل ملابسه ليستعد للنوم. نظر إليها ليراها قد لفت جسدها البض بشال من الصوف الثقيل، وشعرها الأسود القصير تُرِكَ حرًّا. عيناها الواسعتان ذكَّرتَاه بالبحر، كلما نظر فيهما شعر وكأنهما دوامتان تحثانه على الغرق. أفزعته الفكرة فنظر لبعيد.

- ماذا تريدين؟

استغربت جفاءه، فهو في العادة محِبٌّ، وحنونٌ.

- أنتَ منزعج منِّي؟

قال بجِدَّة:

- ولماذا سأنزعج منكِ؟ فعلتِ شيئًا خاطئًا؟

- لا! فقط أريد أن نتكلم.

- تكلمي.. ولكن...

- ولكن ماذا؟

صرخَ في وجهها:

- لا تنظري إليَّ! لا تحدقي فيَّ.

لم تفهم.. ظلت تنظر إليه مستنكرة، فازداد اهتياجه.

- عيناكِ

- عيناي؟ ماذا بهما؟

- مثل البحر. يشبهان البحر.. ابتعدي.. أغمِضي عينيك..

تداركت صالحة أن زوجها ليس على ما يرام، وأنه يعاني من هذا العرض الشائع الذي يعاني منه المصابون بالمرض. يتخيل أشياء لا يعرف أحدٌ عنها شيئًا، وكلها أشياء سيئة، ومؤذية.

اقتربت منه ووضعت كفها البيضاء ذات الأصابع الدقيقة على كتفه، كادت أن تضمه إلى صدرها غير أنه أبعدها بعنفٍ.

- إبراهيم.. المرض تمكَّن منك.

- ماذا؟!

- سأتصل بطبيب العائلة.

- أيُّ طبيب؟! ماذا تقصدين؟

- أنت تفهم قصدي جيدًا.

- تقصدين أنني جننت؟ هه.. لا يا هانم.. لقد أتممتُ الأربعين قبل عامٍ من الآن! أنا طبيعي، طوال العام كنت طبيعيًّا.. هل لأن عينيكِ مخيفتان ستتهمينني بالمرض؟

- ومنذ متى كانت عيناي مخيفتين يا إبراهيم؟ أنت تحبهما أكثر من أي شيء.

- لا.. عيناك بهما دوامات.. أنا خائف، وأنتِ تحدقين فيَّ بطريقة غريبة.. لماذا تفعلين هذا؟ ما الذي تريدينه بالتحديد؟

- لا عليك.. نَمْ واستَرِح.. لا تفكر.

ومثل كل ليلة، نامت بجواره.. كان يطلب منها دائمًا أن تظل بجواره حتى ينام نومًا عميقًا، ولكنه الليلة غاضبٌ، وحانق.. ويكره وجودها في محيطه.

- أرجوكِ.. أريد أن أظلّ وحدي..

تركت الغرفة وذهبت إلى غرفة ابنها الذي ما زال خائفًا من غدر البحر.. وظلت تهدِّئه حتى نام بين يديها.. ومنذ تلك الليلة.. ليلة ظهور الجنون الأولى في البيت، صار البحر يزوره في المنام على هيئة وَحش مفترس.

***

استفاق زين من أفكاره عندما مرَّت أمامه أسرةٌ صغيرةٌ، عبروا الشارع بسرعة. لم ينتبه لهم، وبالكاد ضغط على المكابح بقوة وهو يسبُّ ويلعن.. عجلات سيارته ترتعش وتتحرك وكأنها ستطير من مكانها.. أوقف السيارة باهتة اللون على الجانب الأيسر من الشارع بجوار الرصيف وأعطى إشارة انتظار، ثم ترجَّل منها غاضبًا، بينما كان ربُّ العائلة غاضبًا أكثر منه.

- فتّح يا أعمى!

قالها الرجل بحدة..

- أفتَّح؟ مخطئ ومتبجح؟

- كدت تدهسنا جميعًا.. ما هذا الطيش؟ خَفْ على حياتك يا أخي!

- حياتي؟ ها ها.. تعالَ وخذ حياتي.. مَن الذي أخبرك

أنني أريدها في شيءٍ؟ هه؟

ضحك زين ساخرًا فأثار استعجاب الرجل، بينما جذبته زوجته من ذراعه وقالت:

- اتركه يبدو أنه مجنون.

فضحك زين مرة أخرى بعصبية وهو يراهم مبتعدين؟

- لا يا مدام.. لم أجنّ بعد. سأجن غدًا أو بعد غدٍ.. ها ها.. سترين الجنان كيف يكون وقتها.

ابتعدت الأسرة الصغيرة وذهبوا صوب مقهى كبيرٍ يطل على البحر.. الهواء حمَلَ رائحة سمك مشوي إلى أنف زين، وأخذت معدته الفارغة تقرقر، كأنها تأكل نفسها.

«أغبياء! ينصحني هذا المتخلف بأن أخاف على حياتي ثم يأخذ زوجته وابنته ليجلسهما بجوار البحر! ماذا لو أتت موجة سحبتكم جميعًا من أماكنكم؟ هه؟ تنصحني بعكس ما تفعله؟» تمتم زين مستاءً وهو يركب سيارته ويكمل طريقه.. قال في نفسه وهو ينحرف إلى شارع جانبي محاولًا تفادي الزحام الشديد «كان يجب أن أختار شركة قريبة من البيت لأعمل فيها، ولكن كيف لي أن أتوقَّع موقفًا مثل هذا؟ هل يجب على الإنسان أن يعمل بجوار البيت حتى إذا اقترب موعد وفاته يكسب الوقت ولا يضيعه في الطريق؟ هه! وهل يعرف أحدٌ موعد وفاته يا غبي؟ إنها لنعمة كبيرة ألا يعرف الإنسان متى سيموت.. يعيش كلَّ يومٍ وكأنه مخلَّد. يعيش وكأن الموت نسيه، ولن يهدده أبدًا، ثم فجأة.. يموت. بدون سابق إنذار. بدون تحذيرات مسبقة. ما أسهل ميتة كهذه! أما أنا؟

أنتظر موعد وفاتي منذ ثلاثين سنة. عشت في عد تنازلي طوال عمري. لم أستطع أن أذق طعم الحياة بدون التفكير في أنها ستسلَب مني في الأربعين. فكرة الموت ظلَّت في رأسي منذ طفولتي، فلم أعِشْ مثلما يجب، وحُرِمت طعم الحياة الصافي الذي لا يشوبه تهديدٌ وخطرٌ. والآن.. عليَّ أن أقتل نفسي بنفسي.. ما أقسى ذلك! لماذا لم أمُت في العشرين مثلًا؟ لماذا لم أتوفي بشكل طبيعي وأنا راقدٌ في فراشي؟ لماذا أعيش هذه اللحظة؟ ولماذا أفكر في كلِّ هذا؟ أليس هذا فوق طاقة البشر؟ وما هذا الجوع اللعين؟ أنا ناقص؟! التفكير لن يفيد.. بالمنطق، واحد زائد واحد يساوي اثنين. المرض في عائلتي وراثي. تبدأ أعراض المرض في الظهور على الفرد منَّا ابتداءً من سن الأربعين فيما فوق. جميع العائلة وبلا استثناء عانوا من المرض ذاته. المرض لم يفوِّت أحدًا منهم لسوء الحظ، والحظ لن يتحسن على يدي. لن أكون استثناءً بإجماع الأطباء. هذا المرض يدفعهم للانتحار بدون إرادة منهم. في البداية، يعانون من الاكتئاب المزمن دون سبب واضح، ومن ثم يزداد الاكتئاب ليصير هلعًا من الناس ومن الحياة. يعتقدون أن الجميع يحاولون قتلهم. يعتقدون أن الكون يتآمر ضدهم. ثم يدخلون في نوباتِ قلقٍ وخوفٍ على فترات متقطعة، ويعانون لفترة حتى تبدأ فكرة الانتحار تراود عقولهم المريضة. يتنكر الموت ويراقص أفكارهم بنعومة، حتى يقنعهم أن يقتلوا أنفسهم ببساطة؛ لأن الموت سيريحهم من العذاب، يصير الموتُ مثل النداهة، وهم يتبعون صوتها الساحر وينتحرون. هذا ما حدث مع جدي، ومع جد جدي، ومع

أبي. فلماذا، بالمنطق، سيفلتني القدَر أنا بالذات؟ لماذا لن يحدث لي مثلهم؟ مستحيلٌ طبعًا. إذًا القرار الصحيح هو أن أقتل نفسي بسرعة قبل أن أذوق العذاب وأصبح أضحوكةً أمامَ الجميع. وإذا قتلتُ نفسي ستكون هذه هي نهايةُ نسلِ عائلة الحسيني. سأخلص العائلة من هذا المرض المتوارث. هذا هو الحل الأمثل.. لا، بل الحل الوحيد. أما إذا تراجعت عن قرار الانتحار، أولًا: سأصير أضحوكة، وثانيًا: سأصير عالة على أمي، وهي ضعيفة ومريضة. لن تستطيع أن تخدمني. ولعلّي عندما أفقد عقلي سأقتلها بدون وعيٍ منّي! مَن يدري؟ سأتخيل أنها تحاول قتلي مثلما تخيل أبي أنني أحاول قتله بالمسدس اللعبة! وعندما أعتقد أنها تضمر الشر لي سأتصرف بطريقة جنونية وسأفكر في قتلها، وهي لن تستطيع أن تقاومني، إنها ضعيفة جدًّا.. نعم.. يجب أن أقتل نفسي. وثالثًا: لعلَّ أعراض المرض ستتأخر عامًا أو اثنين أو عشرة! ماذا لو اعتقدت أنني نفذت من بين يديِّ المرض؟ ثم قررت أن أتزوج وأعيش حياتي أخيرًا؟ ثم أنجبت؟ ثم أورَثت المرض لأطفالي؟ لا لا.. لن أفعل مهما حدث. سأقتل نفسي. هذا هو الحل الوحيد. والآن، سأصل إلى الشركة. لن أضيع الوقت في العمل. سأودع أصدقائي. سأرى (حياة) للمرة الأخيرة. وبعد أن أودعهم سأتوجه إلى البحر.. سأدخل إلى عمق البحر بجرأة. لن أخاف. سأدعه يبتلعني وننتهي من هذا الكابوس..»

وصل زين إلى الشركة، وبسرعة ركن سيارته صف ثانٍ، غير مكترث بأمين الشرطة المتجهم الذي كان يرمقه من

على الرصيف المقابل، ترجَّل منها متجهًا إلى المبنى البانورامي الضخم. وقد رصت حروف كبيرة أعلى المبنى باسم الشركة، X Customer Service Company، وهي واحدة من أكبر الشركات المخصصة لخدمة العملاء في الإسكندرية.

«خذوني واطرحوني إلى البحر فيسكن، لأني موقِن أن هذا الإعصار المريع قد هاجَ عليكم بسببي».

سِفر يونان

# - الساعة الخامسة -

«مخصوم منك نصف يوم..»

قالها ماجد عندما رأى زين يدخل إلى القسم متأخرًا عدة ساعات. القسم الذي يعمل فيه زين به أكثر من مئة موظف، يجلسون أمام شاشات الكمبيوتر ويضعون السماعات على آذانهم لساعات طويلة. منهمكون جدًّا في تلقي اتصالات العملاء، والرد على شكاواهم من مختلف المشكلات التي تواجههم، المتعلقة بتوصيل الطعام باردًا أو توصيل طلب بالخطأ إلى عنوان آخر، وغيرها من المشكلات التي تحدث عندما يطلب العميل طعامه من أحد المطاعم. أما زين فهو المشرف المسؤول عن هؤلاء الموظفين، وعن جودة عملهم وطريقة حلهم لمشكلات العملاء والحرص على إرضائهم.

- بل اخصم الشهر كله.

قالها زين غير عابئ. «وما فائدة الراتب؟ سوف أموت الليلة.. فليخصم راتبي كلّه لعنة الله عليه!» حدَّث نفسه وهو يسير في ممرات القسم المزدحم بالموظفين، يبحث عن حياة! كان يعرف أنه من الصعب أن يجدها، ففي القسم لا يوجد مكتب محدد لكل موظف، إنهم يغيِّرون أماكنهم كلَّ يومٍ، وقبل أن يصيبه اليأس لمحها أخيرًا من بعيد، منهمكة في مكالمة ما، مرتدية ثوبًا أسود طويلًا، ذا أكمام قصيرة، ضيق من جهة الصدر، وينسدل واسعًا فوق ردفيها.. كان جميلًا عليها، ولونه يبرز صفاء وبياض بشرتها الناعمة.. حتى جسدها ما زال رشيقًا، لم تفسده

الولادة المتكررة.

اتجه إليها بخطى بطيئة، وقد نسي الوقت والزمن، ولم يتذكر شيئًا سوى أيامهما معًا. تذكَّر يوم انفصالهما وكيف تألم وبكى..

***

- لا أستطيع أن أكمل..

قالها في المقهى المقابل للشاطئ الذي اعتادا أن يتقابلا فيه. وموسيقى قدَّاس الموت لموزارت تجيء من المسجل في المقهى لتقبض قلبه.. تذكَّر ليلتها عندما قابل صاحب المقهى قبل عدة أيام من مقابلته لحياة. كانا يتسامران ويتكلمان عن الأغاني الجديدة والشعبية ذات الإيقاع السريع، كما تكلما عن الأغاني القديمة والموسيقى والفن.

وقتها صمَّم زين أن يُسمعه سيمفونية قداس الموت التي أسرَت قلبه حين سمعها أول مرة، ليقترح على صاحب المقهى أن يضعها من ضمن قائمة الأغاني القديمة في السهرات الشتوية. رفضَ صاحب المقهى الفكرة تمامًا.

- الناس ستترك المقهى وسأعلن إفلاسي إذا شغلت هذه الموسيقى الكئيبة يا زين. أحترم ذوقك، ولكن هذه الموسيقى يمكنك سماعُها في بيتك أو في دار الأوبرا. أما في المقهى؟ صعب..

- جرِّب! ربما تجذب هذه الموسيقى زبائن جديدة يكرهون الأغاني التي تشغلها دومًا مثلًا! ماذا ستخسر؟

- سأخسر زبائني طبعًا.

لم يعرف زين ما هذا الحظ السيئ الذي جعل صاحب المقهى يعمل بنصيحته الليلة بالذات ويقوم بتشغيل هذه السيمفونية في المقهى!

قال زين في نفسه: «قداس الموت بالذات؟ والآن؟!»

بينما قالت حياة وهي تحاول أن تخفي ما فعلته بها الصدمة:

- لماذا يا زين؟

- لدي أسبابي.

شَعَرَت بالقهر وقتها. لم تكن تعرف لماذا، وبعد ثلاثة أشهر فقط من ارتباطهما وحبهما، يطلب زين الانفصال عنها وكأن كلَّ ما بينهما غير حقيقي.. ارتفع إيقاع الموسيقى، ومعه تسارعت دقات قلب زين.. صرخ المنشدون بكلمات لا يفهمها، ولكنه فهم أنها صرخة موت، واستجداء، وعذاب انقضى، وعذاب آخر قادم..

- هل يمكنني أن أعرف هذه الأسباب؟

هدأ المنشدون، هدأت الموسيقى، كأنهم مَلُّوا الصراخ، وكأن اليأس لعبَ دوره في قلوبهم، أو أصابهم النعاس!

- لا.

- لكنه حقي.

- آسف. ليتني أستطيع.

- .....

- أتمنى لكِ السعادة يا حياة. لا تنتظري عودتي.

عصا المايسترو حذَّرت العازفين، نظرته المتقدة أمرَتْ

الجميع ببدء الملحمة.. وكأنَّ مسًّا من الجنون أصاب المنشدين، تعالى صراخهم على أنغام السيمفونية الغاضبة من الموت، والحانقة على الظلم.

تركها زين خلفه غير متردِّدٍ.. هرول لخارج المقهى وكأنه يخاف من نفسه أن يعود، وكأنه هاربٌ من الموسيقى الموجعة، ليوقفه صاحب المقهى ويهمس في أذنه: «انظر من جاء! زبائن جُدد. كنت على حقٍّ».

بوجه عابس ومهموم ردَّ عليه زين: «وانظر أيضًا.. أنا زبون قديم أحاول الهرب. كنت على حقٍّ».

تذكَّر زين ليلتها عندما بكى في حضن أمه ساعتين متواصلتين، تذكَّر عندما ظلَّ يلومها.

- لماذا تزوجتِ من مجنون بالوراثة! لماذا قررتِ أن تنجبي مجانين مثله؟ أخبريني.

كان لديها إجابة. فكرت أنه من المخذل أن تملك إجابة منطقية ولا تعرف أن تتفوه بها.

- رُدي عليَّ.

- لستُ أنانية يا زين.. هذا ما يجب أن تعرفه.

- أنتِ السبب في حرماني من حياة.

- ارجع لها.

رفعَ رأسه ونظر إلى أمه بعينين بلون الدم، صاح في وجهها:

- وأصير أنانيًّا مثلك؟ مجنون مثل بابا؟

دمعت عينا صالحة وهي تراه في هذه الحالة:

- لن يحدث ذلك.. تزوجها، ولن يحدث شيءٌ. لا تخف.

- مستحيل.. لست مجرمًا.

- ولا أنا يا زين! ولا أنا.

تعرف أنه لن يصدقها مهما قالت.. تعرف أنه يراها مجرمة، آثمة، وأنانية لأقصى درجة.. يراها مثل وصمة عار.. مثل بقعة سوداء في ثوب أبيض.. يراها مصدرًا لجلب الفضيحة، ورحمًا ينجب المرض، وامرأة صاحبة تاريخ عَكِر اختارت أن تتزوج من المجنون الوحيد الذي وافق أن يربط اسمه بها لينجبا طفلًا كُتِب عليه أن يفقد عقله.

***

تدافعت كل الذكريات الأليمة في عقل زين وهو يقترب من حياة. ما زالت تتكلم من خلال السماعات المصحوبة بمكبر صوت صغير، ومن الواضح أنها تحاول حل مشكلة كبيرة لأحد العملاء الغاضبين. انتبهت لزين واقفًا أمامها فابتسمت له، ضغطت على زر «صامت» لتتكلم دون أن يسمعها العميل، وقالت لزين بحذر:

- إنها العميلة ذاتها! تشتكي أن الطعام جاء باردًا، مصممة أن تصف لي مشاعرها حيال ذلك! هل تصدق؟

عقد زين حاجبيه، قبل أن يقول بغضب:

- مرة أخرى؟ إنها تتصل كل يوم لتبدي نفس الشكوى!

- حفظت صوتها! يمكنني أن أميزها من بين ألف عميل.

أنهت عبارتها ثم عادت إلى المكالمة مرة أخرى:

- نعم يا افندم.. معكِ كل الحق.. حالًا سوف نرسل مندوبنا بوجبة طعام أخرى ساخنة، سأحرص على ذلك وسأتابع بنفسي.. نعم؟ لا تريدين الوجبة؟ إذًا اقبلي منَّا رَدّ ثمنها. سوف أضعه في حسابك فورًا.

حاولت استرضاءها بأي وسيلة، ثم ضغطت على زِرّ «صامت» مرة أخرى لتقول مخاطبة زين:

- لا أفهم ما تريده هذه العميلة؟ تصمم أن تتحدث مع المشرف!

مطَّ زين شفتيه في ضيق:

- أخبريها أن المشرف غيرُ موجود، لن أعمل اليوم.

رفعت حاجبيها، ثم هتفت:

- لن تعمل! لم جئت إذًا؟

ودون أن تعطيه فرصةً للرد، عادت إلى المكالمة:

- نعم يا افندم.. عذرًا، ولكن المشرف غير موجود. لماذا لا تريدين إرجاع المبلغ إلى حسابك؟ حسنًا.. نعم.. ولكن!

تسمرت في جلستها للحظات ثم خلعت السماعات عن رأسها، نظرت لزين باستغراب:

- أنهت المكالمة، أغلقت الهاتف في وجهي! أنت متخيل؟ ترفض إلا أن تتحدث مع المشرف.

تأفف زين قبل أن يقول بعصبية:

- لنحظرها من المكالمات وينتهي الأمر. هل يجب أن نسترضيها يوميًّا؟ أنا متأكد أنها تكذب.

- ولكن يا زين.. لماذا ستكذب؟

أشاح بكفه ثم قال بضيقٍ:

- لا أعرف.. لعلَّها مجنونة أو مصابة بالماليخوليا.

- مصابة بماذا؟!

ارتبك قليلًا لسؤالها:

- لا عليكِ.. المهم. لقد جئت.. جئت كي...

- صحيح! لماذا جئت؟ يبدو أنك متعب اليوم. لماذا لا تذهب وترتاح في البيت؟

نظر مليًا إلى وجهها الذي يعشق تفاصيله:

- حياة..

- نعم؟

خرجت الكلمات من بين شفتيه هادئة رغم ما بداخله من غليان:

- متى سينتهي دوامك؟

- بعد ثلاث ساعات.

بحركة لا إرادية نظر لساعة يده ثم قال:

- بعد ثلاث ساعات، سأخبركِ لماذا تركتُكِ قبل خمس سنوات.

امتقع وجه حياة بعد أن تذكرت تخلِّيه عنها، وألمها الذي لم تستطع تجاوزه بمرور السنوات. تذكرت كسرتها وبكاءها المرير، غضبها العارم وجرحها الغائر الذي يأبى أن يلتئم..

- ستخبرني بالسبب؟ اليوم؟

- نعم.. اليوم.

- لماذا اليوم بالذات؟

- ستعرفين عندما أخبرك.

ثم تركها وذهب مبتعدًا قبل أن تتفوه بكلمة أخرى.. «زين.. يا زين» سمع أحد الموظفين الجدد يناديه بإلحاح. كان ينوي أن يغادر المبنى في الحال، ويتجاهل نداء الموظف، إلا أن طبيعته منعته من ذلك، لم يستطع طوال عمره أن يتجاهل طلب مساعدة من أحد حتى لو كان الوقت ضيقًا أو لديه ضغط عمل. ووجد نفسه ذاهبًا للموظف عارضًا المساعدة.

- هل لديك أي مشاكل؟

- العميلة التي تتصل بنا كلَّ يومٍ؛ لولا! تريد أن تتحدث معك.

كاد زين ينفجر من الغضب، لكنه تمالك أعصابه بقدرة عجيبة قبل أن يسأله:

- ألا تيأس هذه المرأة! هل أخبرتها أنني موجود؟

- نعم.

صاح في وجهه:

- لماذا؟

تلعثم الشاب قليلًا قبل أن يقول بحرج:

- لأنك موجود!

- لقد أخبرتها حياة منذ قليل أنني غير موجود.

- ومن أين لي أن أعرف؟

- نعم.. صحيح.. من أين لك أن تعرف! لقد سئمت من هذه العميلة. أعطني السماعات، وقُم من هنا.

قام الموظف عن كرسيه ليجلس زين مكانه، يضع السماعات فوق أذنيه ويعدل مكبِّر الصوت، وهو مشحون بالغضب وينوي أن يسب العميلة هذه المرة إن لزم الأمر.. «ماذا سأخسر لو شتمتها الآن؟ سأترك الدنيا كلها وأذهب. إذًا فلأريح الشركة منها تمامًا قبل ذهابي، وبهذا أكون خدمتهم بطريقة لا يحلمون بها».

- ألو.. مدام لولا؟

جاءه صوتها عبر السماعات رخيمًا كالعادة، يشعره دائمًا أنها سيدة مجتمع ذات عقل فارغ تجلس على أريكة مذهبة، ترتدي فستان سهرة أحمر عاري الأكتاف ومن فوقه شال من الفرو باهظ الثمن، تضع ساق فوق ساق وترفع حاجبيها النحيفين مثل الفتلة.. لطالما تخيلها بهذا الشكل!

- آنسة.. من فضلك.

كتم ضحكة ساخرة كادت أن تفلت منه، ثم قال متجاوزًا كل ما تعلمه عن كيفية التعامل مع العملاء:

- لا يهمني أن أعرف حالتك الاجتماعية. لماذا أنتن النساء تصممن أن معلومة كهذه مهمة لمن يعرفكن ومَن لا يعرفكن؟

ارتبكت لولا عندما شعرت بنبرته الهجومية، لكنها

تداركت نفسها وقالت بهدوءٍ شديدٍ:

- لكنك تعرفني! ألا نتحدث سويًّا كل يوم؟

- لا والله؟

- ألا تعرف أيها المشرف أن التحدث بطريقة السخرية هذه مع عميلة من عملاء الشركة يعرِّض منصبك للخطر؟

- هه.. أنتِ لا تعرفين شيئًا.

- إن الوجبة التي أحضرتموها لي...

قاطعها بحدة:

- باردة.. وجبة باردة. أليس كذلك؟

- جيد أنك تعرف! المشرف الشاطر يعرف عيوب شركته.

- وهل تعرفين أنتِ أن لا أحد يشتكي من جودة الطعام سواكِ؟ خدمتنا ممتازة، ونحرص على توصيل الطعام طازجًا وساخنًا، وهذه الشكوى لا تجيئنا سوى منكِ.

- ألا تلاحظ أن طريقتك في الكلام غير احترافية بالمرة؟ لقد كنت تعرف ماذا تقول بالأمس، وقبل أمس، وقبل أسبوع.. ما الذي حدثَ لك اليوم؟ أخبرني..

- هل أخبرك بشيء حقًّا؟ ولا تغضبي؟

- نعم.. أخبرني.

- أنتِ كذابة.

سمع ضحكتها ترنُّ في أذنه بطريقة استفزازية. ضحكة لا تشبه صورتها التي رسمها في خياله بفستانها الأحمر، بدت ضحكة طفلة في الإعدادية بضفيرتين طويلتين:

- لمَ تضحكين؟!

- أنا كذابة؟ كيف؟

احمرَّ وجه زين من الغضب، ولم يعد يتمالك أعصابه، وفورًا كان جميع الموظفين يسمعون صوته العالي وهو ينهرها ويعطيها درسًا عنيفًا في الأدب، مما أخافهم جميعًا وجعلهم ينهون المكالمات التي كانت معهم؛ حتى لا يسمع العملاء فضيحة كهذه. وجاء ماجد راكضًا ليرى ما الذي يحدث، وقامت حياة عن كرسيها مفزوعة لترى زين يصرخ عبر سماعات رأسه، بعدما تلبسته حالة غير طبيعية من الهياج العصبي:

- نعم يا... لن أسب.. أنتِ كذابة. تتصلين منذ شهرٍ بشكل يومي، لتشتكي أن الطعام جاء باردًا، وتتعمدين إخبارنا أنكِ آنسة، وأن اسمك لولا، وأنك لا تستطيعين شراء «مايكروويف» لتسخين الطعام، ولكنك تستطيعين طلب وجبة غالية الثمن يوميًّا، وبالصدفة تصلك الوجبة باردةً كل يوم، فتتصلين بخدمة العملاء، ليُحدِّثك كل موظف من موظفينا أكثر من مرة خلال شهر واحد! وتتعمدين إطالة وقت المكالمة، وكأن حياتك فارغة، وكأن ليس عندك ما تفعلينه سوى التسلية وإرهاق موظفينا. لعلَّك مندسة علينا من شركة منافسة! مَن أرسلك لتعطيل خدمتنا؟ اعلمي يا... ما اسمك أنتِ؟ حتى اسمك كذبة.. لولا؟ من سيسمي ابنته لولا؟ اعلمي أننا لا يشرفنا التعامل مع عميلة مثلك! هل تظنين أننا سنخسر شيئًا إذا خسرناكِ؟ بل سنكسب راحة بالنا جميعًا وسنرتاح منكِ..

سكت زين قليلًا بعد أن لاحظ أن لولا لم تحاول أن تقاطعه

بالمرة ولم يسمع لها حسًّا. أغمض عينيه ليتنفس بعمق..

شهيق.. زفير.. شهيق..

زفير.. زفير

ثم فتح عينيه ليجد ماجد مديره واقفًا أمامه فاغرًا فاه، ومن حوله جميع الموظفين المذهولين بما يحدث. لم يعرهم اهتمامًا، وبعد فترة صمت شعر وكأنها دهر كامل.. جاء صوت لولا مرتعشًا، شعر وكأن رعشة صوتها نتيجة لارتعاش جسدها بالكامل:

- نعم يا سيادة المشرف.. أخبركَ بسرٍّ؟ أنتَ مُحق.. أنتَ مُحق. لست غاضبة منكَ يا زين. معك كل الحق، ولكنني فقط.. لم أنتبه أنني مزعجة لهذه الدرجة.. لدرجة أن تفقد أعصابك هكذا.. أنت مُحق.

- مَن أخبركِ باسمي! كيف تعرفين اسمي؟ ومَن سمح...

قاطعته لولا بحِدَّة قبل أن يكمل كلامه:

- غير مهم يا زين.. معلومة غير مهمة فعلًا، وطالما قررت أن تكون صريحًا إلى حد الوقاحة مع عميلة من عملاء الشركة، وعميلة مخلصة بالمناسبة، وتكسبون من ورائها نصف أموال الشركة؛ لأنني لا أفوِّت يومًا لا أطلب فيه الطعام، ولأنني أصرف كل أموالي من أجل طلب الطعام، وفي بعض الأحيان كنت أطلب الطعام مرتين في اليوم وأحيانًا ثلاث.. تمام؟ بما أنك قررت أن تعرِّض منصبك للخطر؛ لأنني لو اشتكيت لمديرك الآن سوف يرفدك في الحال، ولأنني أعرف أن المكالمات مسجلة، وأن مديرك لو سمع هذه المكالمة سيطردك فورًا، وأنت

طبعًا تعرف القوانين جيدًا، وتعرف أنك لا تستطيع أن تكلمني بهذه الطريقة الفجة.. سوف أخبرك لماذا.. سوف أخبرك لماذا أفعل ذلك يوميًّا. ثم لن أتصل بكم مرة أخرى ما حييت. لن أطلب الطعام ولن أتصل بكم مرة أخرى. تمام؟ فلتعرف ذلك.

قال زين بعد أن هدأ قليلًا وأثاره فضول أن يعرف ما الذي سوف تقوله هذه العميلة الغريبة:

- نعم. لو سمحتِ..

- تمام.. سوف أخبرك.

ثم بكت العميلة فجأة! انهار صوتها المرتعش ليصير نحيبًا وأنينًا. سمع شهقاتها وهي تحاول أخذ أنفاسها، وشعرَ وكأنها تحاول تمالُك نفسها والسيطرة على نوبة البكاء التي فاجأتها هي شخصيًّا. تبدَّدت صورة الفستان الأحمر من رأسه.. تخيل الطفلة ذات الضفيرتين تمسك دُميةً من قماش، وتقف أمام البحر الغاضب الذي يحاول أن يقذف إحدى أمواجه العالية باتجاهها ليبتلعها..

وبعد أن فشلت لولا في السيطرة على صوتها ليبدو متماسكًا وقويًّا، أكملت حديثها وهي تبكي، ليسمع كلامها وكأنه أنين لامرأة تتألم:

- سـ.. سوف أ.. أخبرك.. أنا.. أنا أفعل كل ذلك؛ لأنني وحيدة (شهقت شهقة عميقة) هل تعرف معنى الوحدة؟ هل جربتها؟ طبعًا لا.. فأنت وسط زملائك في العمل الآن، وأنتم كُثر.. وأنا هنا.. هنا في هذا البيت المظلم وحدي.. ليس لدي أصدقاء! أصارع وحشًا ضخمًا، اسمه

الوحدة.. وحشًا يحاول أن ينهش روحي.. قبل شهر من الآن، كنت في حالة سيئة جدًّا.. (ارتبك زين وظلَّ يتعرق ويمسح عرق جبينه بيده رغم برودة المكان) كنت في حالة سيئة يا زين.. فجاء على بالي أن أطلب الطعام، وكان الطعام باردًا بالفعل.. مما أثار غضبي، فبحثت عن كيفية التواصل مع خدمة العملاء، واتصلت بكم لأول مرة، وردت عليَّ موظفة عندكم، وحدثتني.. حدثتني بطريقة لائقة، وباحترام بالغ.. عاملتني وكأني سيدة مجتمع، أو فنانة مشهورة، أو امرأة مهمة في البلد. أنتم تعرفون كيف تتكلمون بطريقة مهذبة، بغضّ النظر طبعًا عن هذه المكالمة اللعينة، وعن عدم اتباعك لسياسة الشركة اليوم في التحدُّث مع العملاء.. ولكن.. شعرت يومها أنني نسيت آلامي عندما احترمتني هذه الموظفة. هل تعرف أيها المشرف أنه لا أحد يحترمني؟ وأنني السبب في هذا؟ فعلت شيئًا سيئًا فقط لأكسب أصدقاء! فخسرت كل شيء.

بدأ الارتباك يسيطر على زين، رغم خبرته الطويلة لم يعرف كيف يتعامل معها:

- لكن...

قاطعته بحسم:

- لا.. لا تتكلم أرجوك. اسمعني فقط، فهذه هي مكالمتي الأخيرة لكم.. اتركني أخبرك لماذا تصرفت بهذه الطريقة وأزعجتكم طوال شهر كامل. أنا.. أعمل في... أعمل لدى قواد أيها المشرف.. أنا غير جديرة بالاحترام بالمرة.. نعم أنا أخبرك بنفسي أنني غير جديرة بالاحترام،

ولا حتى أحترم نفسي.. لقد صُدِمت في أقرب الناس لي (شهقت باكية) قبل أن أعمل كعاهرة لدى الباشا.

- الباشا؟!

تجاهلته كأنها لم تسمعه، واستطردت:

- وفقدتُ احترامي لنفسي.. تمام؟ وفقدت شرفي أيضًا.. تفهمني؟ ولفظني المجتمع كما يلفظ الشحاذين والمصابين بالجَرَب.. ومعهم حق. معهم كل الحق.. ولكن عندما اتصلت بكم، وعاملتموني باحترام شديد، أحببت هذا الشعور يا زين. ذكَّرني باحترامي لنفسي قبل أن أغرق في وحل الباشا (انهارت باكية وسكتت قليلًا ثم أكملت وهي تحاول السيطرة على نبرة صوتها المرتعشة) أحببت هذا الشعور.. الشعور بالتقدير والاحترام. وغير ذلك، الونس.. الونس أيها المشرف. أنا وحيدة تمامًا.. وحيدة منذ شهر. هل تعرف لماذا؟ لأنني تبت. نعم.. تبت منذ شهر. وعَدتُ نفسي أنني لن أعود لهذا الطريق مرة أخرى. لدي المال الكافي لأعيش.. غير أنني أريد أن أتخلص من هذا المال الوسخ.. لا أريد هذا المال المدنس.. تمام؟ فصرت أطلب الطعام كلَّ يوم، ولا آكله.. الطعام غير باردٍ.. الطعام شهي وساخن.. أعترف بذلك..

وسمع زين صوتَ رجلٍ يسعل:

- مَن هذا؟ تقولين إنك وحدك؟ صوت من هذا؟ تكذبين مرة أخرى؟

تجاهلت لولا كلامه وأكملت حديثها:

- أنا فقط كنت أطلب الونس.. كنت أريد أن أتحدث مع أحدٍ لا يعرفني ولا أعرفه؛ لكي يؤنسني في وحدتي، وأشعر معه بالاحترام المتبادل.. وعندما كان موظفوك يعرضون عليَّ جميع الخدمات لاسترضائي، كنت أعرف أن المشكلة إذا تم حلُّها، سوف تنتهي المكالمة، فكنت أرفض جميع الحلول، لا أقبل أن يرسلوا وجبة أخرى ساخنة، ولا أرغب أن يردوا المال لحسابي، كنت أصعِّد المشكلة للمشرف؛ لكَ.. لنتحدث قليلًا أو كثيرًا.. لنتحدث! نتكلم في أي شيء.. المهم أن أشعر بالونس أيها المشرف، وأن أنسى الوحدة ولو لساعة واحدة..

لقد تبت، ولكن الوحدة تقتلني.. لا أحد يقبلني من أصدقائي القدامى، ولا أهلي.. الجميع تخلوا عني لأنني سيئة السمعة وحقيرة.. وعندما حاولت أن أخبر أمي أنني تبت أغلقت الهاتف في وجهي بعد أن شتمتني بطريقة بذيئة.. (شهقت) رغم أنها السبب. هي السبب يا زين فيما وصلت إليه! كانت تخاف عليَّ من الرجال كالمجانين. تحرص أن تكون ملابسي فضفاضة وطويلة منذ كنت في الابتدائية. تنهار وتفقد أعصابها تمامًا إذا رأت أحد الأولاد من الجيران يريد أن يلعب معي. كنت طفلة ولا أفهم سبب ذعرها. أجد الأطفال يلعبون معًا بحرية والبنات يرتدين الفساتين القصيرة وينظرن إليَّ باستغراب وخوف. جميع الأطفال يعرفون أنهم ممنوعون من اللعب معي، وإلا ستجيئ أمي وتنهرني وتعنِّفهم. وكلما كبرت كلما زاد رعبها وهلعها أكثر وضغطت عليَّ أكثر. أنت تعرف هذه القصة المكررة.. الكثيرون وقعوا

في فخ الحرص الشديد حتى فلتَ منهم زمام الأمور، ولكن المشكلة عندي لم تكن هنا.. المشكلة حدثت قبل بضعة أشهر، عندما عرفتُ بالصدفة أن لأمي ماضيًا ملوثًا! تخيل؟ سقطت من نظري وغضبت.. غضبت بشدة.. لماذا إذًا كانت تعذبني بالمثالية الزائدة والاحترام المبالغ فيه لدرجة أن تضيع طفولتي كلها في البيت؟ لدرجة أن تحرمني من تكوين صداقات؟ ليس لدي أصدقاء يا زين! حرمتني أمي من الدخول للمدرسة ودرست طوال حياتي في البيت! منعتني من تكوين صداقات ومن الخروج بدونها. لم أتعامل مع الناس قَطّ!

ليس لدي أحد. أعماني الغضب فآذيت نفسي.. ركضت نحو الخطيئة بقدمي لأنتقم منها.. لأخبرها أنني من حقي أن أخطئ على الأقل! وكأنني طعنتها في قلبها بقسوة يا زين.. جرحها الغائر جعلها تطردني من البيت، وكأنها لم تحبني أنا، كانت تحب صورتي البريئة الطاهرة فقط، وعندما تلوثت هذه الصورة لم تحاول حتى أن تنظفها..

وأنا كنت عمياء، يسيطر عليَّ الغضب ونفسي ثائرة..

وبعد أن أخبرتكَ بكل هذا.. أريدك أن تسامحني، أنت وموظفوك المحترمون.. يبدو وكأن الإله لم يقبل توبتي.. تعرف؟ قبل أن أقرر التوبة، عشقني أحد هؤلاء الرجال الذين يجلبهم لي الباشا، يدفع لي المال الوفير ليقضي معي ليلة، وعندما أخبرته أنني سأتوب ولن يراني مرة أخرى بكى.. أنا أكره هذا الرجل. لقد عرض عليَّ الزواج ليبقى معي. أكرهه لأنه رجل قميء، ومقرف.. مقرف جدًّا. بالمناسبة.. تسألني مَن يسعل؟ هذا الباشا!

أنا أسيرة الباشا.. لكن تبت.. لذلك حبسني.. أنا محبوسة.. تعرف؟

كنت كل ليلة خلال الأشهر الماضية اللعينة أرافق رجلًا، وكانوا يحاولون إرضائي قبل الظفر بي طبعًا، ومن بعدها يلفظونني كحيوانٍ ضعيفٍ أجرب. ولكن على الأقل، لم أكن وحيدة لهذه الدرجة.. كنت أتردد على البيوت والفنادق، وكنت أقابل كل ليلة شخصًا جديدًا، وأكسب المال. شعرت أنني قد تورطت في طريق موحل وقذر ولا أخرج منه فقط لأنني أعرف أنني لن أعود كما كنت أبدًا.. لن أعود بريئة مرة أخرى. كان الندم كلما اعتصرَ قلبي وعذَّب روحي كلما تماديت في الخطأ أكثر!

أنا لست في حاجة إلى المال أيها المشرف، ولكنني في حاجة إلى الونس. أنا أشحذ الونس! ولكن لا يهم.. يمكنك الآن أن تتأكد أنني لن أعاود الاتصال. لو كنت سأموت لن أتصل بكم. لقد نزل الغضب الإلهي عليَّ، ولا يمكنني أن أعيش بدون بشر.. سوف أعود عن توبتي، وسوف أخبر الباشا أنني عدت للعمل.. سيفرح.. سيطلق سراحي.. سأفعل ذلك فورًا بعد أن أنهي المكالمة معك، وسأخبره أنني جاهزة الليلة لأول رجل يعرضه عليَّ. نعم.. سوف أكون برفقة أحدهم هذه الليلة، وإن كان شخصًا بذيئًا وحقيرًا، ولكنه ونس.. ونس يا زين.. تمام؟ والآن مع السلامة.

أنهت المكالمة فجأة وبدون سابق إنذار. تسمر زين في مكانه لبرهة ثم انتبه للجمع المتحلِّق حوله:

- لماذا تنظرون إليَّ هكذا؟ كلٌّ إلى مكتبه.

صرخ زين في وجه الموظفين جميعًا، فعادوا مشدوهين إلى أماكنهم وهم يتمتمون ويتساءلون عما حدث للتو. وحدها حياة ربتت على كتفه قبل أن تعود إلى مكانها مهمومة. وقد ظلت تفكر في السبب وراء تغيُّر زين الغريب اليوم دون أن تتوصل إلى إجابة منطقية.

واقترب ماجد من زين بصفته المدير المباشر له، وسأله:

- كيف تجرأت أن تتحدث مع عميلة من عملاء الشركة بهذه اللهجة الوقحة؟

لم يمهله زين، وقال محتدًا:

- ماجد.. اتركني الآن. واعتبرني مستقيلًا.

فوجئ ماجد بردّ زين القاطع والحاسم، حيث اعتقد أنه سيعتذر أو سيحاول تبرير موقفه كيلا يخصم له من الراتب، ولكن زين أعلن استقالته بدون أن يفكر مرتين!

- مستقيل؟ لماذا؟! ما الذي يحدث يا زين؟

- لا أريد أن أتكلم الآن، وابتعد عن طريقي أريد أن أذهب.

- إلى أين؟

- إلى مصيري..

قال ماجد وهو يحاول تصليح الموقف بقدر الإمكان كي لا يخسر مشرفًا ممتازًا مثل زين، ولم يرَ منه مكروهًا قَطّ قبل الآن:

- زين.. ألاحظ أنك مريض اليوم.. اذهب إلى بيتك ودعنا نتكلم في الصباح. لا تتخذ قرارات سريعة وأنت غاضب إلى هذه الدرجة، ولكن أخبرني.. ماذا قالت لكَ تلك

العميلة؟

- قالت إنها ستعود عن توبتها.. بسببي.

- توبتها؟ أي توبة؟!

لم يجب زين.. ظلَّ يفكر بعصبية شديدة وهو يبتعد عن ماجد. جلس مرهقًا على كرسي في إحدى الزوايا البعيدة عن الأصوات الكثيرة من حوله.. ظلَّ يتذكر آخر جملة قالتها لولا: «سوف أعود عن توبتي.. سيطلق سراحي.. وسأخبره أنني جاهزة الليلة لأول رجل يعرضه عليَّ.. سأخبره أنني جاهزة الليلة.. أنا محبوسة».

***

# - الساعة السادسة -

لقد تذكَّر ليلة من أسوأ لياليه الآن. قبل ثلاثين عامًا.. ما باله يذكر كل التفاصيل؟ «هل يذكر الجميع تفاصيل دقيقة كهذه عن طفولتهم؟ أم أن ما مررت به قاسٍ لدرجة أن يظلّ محفورًا في ذاكرتي ولا يمكن للزمن أن يمحوه؟ ليتني أفقد ذاكرتي بكل ما فيها من خرابٍ!» حدَّث نفسه وهو ما زال جالسًا على الكرسي منهارًا تمامًا.. جميع الموظفين ينظرون له بشفقة وهو يشعر بذلك.. «ينظرون إليَّ هكذا وأنا لم أفقد عقلي بَعدُ! كيف سينظرون إليَّ إذا بدأت أعراض المرض في الظهور؟ سيبكون على حالي ويشفقون عليَّ أكثر.. سأصير مثيرًا للشفقة».

ثم غرق في تفاصيل الليلة المشؤومة.. لقد ذكَّرته العميلة لولا بهذه الليلة على نحو غريب!

ليلتها كان مع أمه في البيت، يحاول أن يكتب واجبه المدرسي وحده بصعوبة، منتظرًا أن تنهي أمه مكالمة هاتفية ما.. «إبراهيم غير موجود.. لن يعود قبل منتصف الليل. تعالَ.» ثم ضحكت بغنج. يذكُر أنه استغرب ضحكتها، أو استغرب أنها تضحك من الأساس! لقد اعتاد على تأففها الدائم.. تخدمه وأباه ساخطة، تضغط على نفسها كي تفعل، وكأن رعايتهما واجبٌ لا تريد أن تفعله، مثل واجب المدرسة الذي يكرهُه ولكنه مُجبَر أن يكتبه، وإلا سيوبخه المدرس «ولكن.. مَن سيوبِّخها لو لم تفعل الواجب؟ ماذا يجبرها على البقاء معنا؟ ربما سترحل في أي وقتٍ».

وبعد أقلِّ مِنْ نِصفِ ساعةٍ رآها ترتدي فستانًا، جاءها هديةً لعيد زواجها من أبيه، فستان أحمر عاري الأكتاف، من قماش الساتان اللامع، ومن فوقه شال من الفرو باهظ الثمن. يذكُر كيف فرحت عندما فتحت العلبة الملفوفة بشريطة حمراء «إبراهيم! شكرًا..» ثم ضمت زوجها بحب وقبَّلته. كان يشعر بالسعادة وهو يقف في المنتصف بينها وبينه وطول رأسه لم يتجاوز صدريهما، يرفع رأسه للأعلى وينظر ليراهما يقبِّلان بعضهما البعض «عندما أكبر سأقبِّل خطيبتي» هكذا قال فضحكا.

تلك الليلة رآها بالفستان ذاته، لم تضع الشال على كتفها هذه المرة.. ولكنها جلست على الأريكة واضعة ساقًا على ساق، وكأنها سيدة مجتمع ذات عقل فارغ.

- ماما.. أين أبي؟

- سافر.

ردت صالحة بغضب. فسكت الولد يحاول محاربة فضوله، ولكنه لم يستطع. سأل:

- إلى أين؟

- إلى داهية! لا تتكلم كثيرًا! رأسي يؤلمني. سافر عند أهله، ارتحت؟

سكت زين، وجرس البيت أعلن عن قدوم ضيف، فهرعت صالحة تفتح الباب وقد زال غضبها بسرعة. استقبلت الضيف بحرارة شديدة وأجلسته في غرفة الصالون.. ثم أغلقت الباب. توجَّه زين خائفًا للباب الزجاجي يطرقه.. زجاج سميك لا يظهر من خلفه سوى خيالٍ مع الضوء.

كان خائفًا.. لا يتحمل الجلوس وحدَهُ. يتهيأ له أن ثمة أشباحًا غير مرئية ستهاجمه، ولطالما تخيَّل أن موجة بحر شديدة القوة والضخامة سوف تصل للعمارة وتنزعها من الأرض وتغرق البيت كله. انفتح الباب ونظر ليجد وجه أمه غاضبًا كالعادة، تصرخ في وجهه بحدة:

- ماذا تريد؟

بنبرة طفولية أجابها:

- لا تتركوني وحدي. أنا خائف.

- كُنْ رجلًا! أنت صغير؟ هل هناك عفاريت في البيت؟ هيَّا اذهب وحِلّ الواجب. لا تطرق الباب مرة أخرى وإلا ضربتك.. هيَّا.

ثم أغلقت باب الصالون في وجهه. يذكُر أنه بكى، وكان يحاول ألا يُحدِث صوتًا كي لا يعرف الضيف أنه ليس رجلًا، وأنه يبكي من الخوف.

ثم رأى خيالًا من خلف الزجاج.. انتبه جيدًا.. وكأن أمَّه تخلع الفستان! وكأن الرجل جالسٌ على الأريكة.. سمع ضحكاتها ترن في الأرجاء.. إنها تقف أمام الأريكة تمامًا.. «ماما..» ناداها فلم تُجِب.. تضحك ولا ترد. ظلَّ يبكي خلف الباب الزجاجي حتى سمع صوت مفاتيح في باب الشقة.. فارتعد «إنه لص» اختبأ تحت طاولة السفرة بسرعة كاتمًا أنفاسه، متخيلًا شكل اللص الذي سيجيئ الآن ليهدِّده بالقتل ومعه سلاح ناري أو سكين حاد. مرت على زين دقيقة من الرعب الذي تضطرب بسببه دقات القلب فتتسارع بجنون، وأخذ خياله يهيئ

له أن بابًا من الشر قد انفتح للتو، وأن أمه التي تحميه تركته وحده عُرضة للصوص وكل ما يخيف.. انفتح باب الشقة ووجد حذائين يمشيان، يعلوهما بنطالٌ يعرفه جيدًا.. «لا، ليس لصًّا إنه أبي..» ارتاح قلبه وكاد أن يخرج من تحت الطاولة، لولا أنه سمع صرخة مدوية من أبيه.. كان قد فتحَ باب الصالون الزجاجي ورأى ما خلفه. لم يرَ زين المنظر.. لا يفهم شيئًا، ولكنه وجد حذائين آخرين يمشيان.. ليسا حذائيّ أبيه. إنه حذاء بني من الجلد، أفخم من حذاء أبيه الأسود المتآكل، وعليه علامة من الجنب.. دقق في العلامة السوداء المصنوعة بخيوط غليظة لتشكل صورة جمجمة صغيرة. نظر للأعلى قليلًا ليلمح كف الرجل الذي يبدو خشنًا. تطوق معصمه ساعةٌ مصنوعة من الذهب، ولكن ما أثار استغرابه أكثر من الساعة والحذاء كان وشمًا أسود مرسومًا على باطن معصمه، وبدا واضحًا جدًّا تحت الساعة. انخلع قلب زين وهو يضيق عينيه ويحاول أن يرى الوشم بوضوحٍ أكثر ليتبين أنه صورة لِعينٍ واسعة مخيفة انقسمت لنصفين، ومن بينهما خطٌّ يشبه علامة البرق.. ركضَ صاحب الوشم باتجاه باب الشقة وخرج.

- خائنة..

سمع أبوه يصرخ، وسمع صفعة، وسمع صوت تهشم شيء زجاجي قُذِف على الأرض، وأمه كانت تصرخ:

- أنتَ السبب.. مجنون.. سئمت من جنونك المؤذي وخدمتك أنتَ وابنك على حساب نفسي. ليتني لم أتزوجك وأنا على عِلمٍ بتاريخ عائلتك.. الخطأ خطَئي..

ثم رأى زين قدمين عاريتين تركضان، ومن خلفهما يركض حذاء أبيه الأسود المتآكل.. أطلَّ برأسه من تحت الطاولة ليجد أمه مرتدية ثوبًا شفافًا قصيرًا.. تدفع أباه عنها بغضب.

- لست نادمة. أكرهك.. ابتعد عني.

وأبوه يصرخ بغضبٍ جنوني:

- حقيرة.. سأقتلك بيدي.

وصار يخنقها بكلتا يديه.. «ماما» صرخ زين وهو يخرج من تحت الطاولة. يذكُر عندما خنقَه أبوه بنفس الطريقة وكاد أن يموت بين يديه. «اتركها.. ماما» وظلَّ يبكي، ويدفع أباه عنها، وهي تحاول الدفاع عن نفسها.. غضبها ساعدها أن تستجمع قوتها وتبعده تمامًا.

هرع إلى الشرفة مثل المجانين.. وكان الرجال جالسين في المقهى يلعبون الشطرنج.. يذكُر أن الرجل الأصلع كان له شعر كثيف وقتذاك، ومدمن القهوة السادة لم يكن قد جرَّبها بعد، والسمين الشره في الأكل كان يتمتع بقوام ممشوق ويواظب على ممارسة الرياضة كل يوم.

ليلتها زعق إبراهيم من شرفة الصالون المطلة على الشارع يقول:

- لا تأمنوا غدر النساء، امرأتي خانتني.. تخونني مع كلب حقير.. سوف أقتلها وأقتله.

ثم دلف إلى الصالون مرة أخرى يبحث عنها كالمجنون. تفقَّدها في غرفة النوم فوجدها تضع ملابسها في حقيبة سفر. جذبها من شعرها بعنف وأخذها إلى الشرفة..

أدخلها إلى الشرفة غصبًا وصرخ موجهًا كلامه للرجال في المقهى:

- اشهدوا.. لقد جئت ووجدتها بهذا القميص، وفستانها ملقى على الأرض، ومعها رجل حقير لا أعرف من أين جاءت به.. عديمة الشرف.

صرخت صالحة وهي تحاول تخليص شعرها من قبضة إبراهيم:

- لا تصدقوه.. مجنون مثل أبيه وأجداده.. لا تصدقوا المجنون.

اشرأبت أعناق رجال المقهى ينظرون إلى الشرفة بأفواه مفتوحة وأعين جاحظة..

- ولكننا رأينا رجلًا يركض من عمارتكم هاربًا منذ قليل.

قال رجلٌ منهم، فردَّ الثاني:

- أعراض ناس.. لعله صديق بريء.

وقال ثالث ضاحكًا:

- صحيح عمارة مجانين.

وكان زين يجلس على الأريكة في الصالون، يضم ساقيه إلى صدره ويدفن رأسه بينهما ويبكي.. كان يريد أن يغمض عينيه عن منظر الفستان الأحمر الملقى على الأرض.

ركضت صالحة إلى الصالون.. التقطت ثوبها من الأرض، وهرعت إلى غرفة النوم.. علقت الفستان في مكانه في خزانة الملابس، ورتبت ملابسها التي كانت قد وضعتها

في حقيبة السفر، وأعادتها إلى أماكنها في الخزانة.. ثم ارتدت ملابس البيت، ودخلت إلى الحمَّام وغسلت وجهها بمياه باردة. وخرجت امرأة أخرى. امرأة تجيد التمثيل والكذب والاستغلال.

كان إبراهيم يجلس بجوار ابنه منهارًا، يحاول أن يتمالك نفسه كي لا يرتكب جريمةَ قتلٍ، وابنه في حضنه وقد كفَّ عن البكاء. جاءت صالحة بوجهٍ باسمٍ وهي تحمل صحنًا صغيرًا. الصحن الذي تستخدمه لخلط الزيوت الطبيعية.. قالت بابتسامة مرتعشة:

- إبراهيم. حبيبي.. لقد حضرت لك زيت الخروع.

وضعت الصحن على الطاولة وجلست على ركبتيها أمام الأريكة، في حين أن زين وأباه كانا ينظران لها باستغراب.

- زين.. اترك أباك الآن يا حبيبي. إنه مُتعَبٌ ويحتاج إلى الراحة والاسترخاء.

ثم جذبت زين من يده عندما لم يستجب، وأبعدته عن الأريكة بنفاد صبرٍ، ثم أكملت كلامها مع زوجها:

- إبراهيم.. مدِّد جسدك لأدهن لك من هذه الزيوت.. لقد أضفت زيت زيتون هذه المرة، بعد أن سخنته قليلًا على النار.. سيريحك جدًّا.

ثم وضعت يدها على كتفه لتساعده كي ينام ولكنه أبعدها عنه قبل أن يقول بحِدَّة:

- أنتِ مجنونة؟ خائنة وتبتسمين هكذا وتحضرين الزيوت؟

ابتسمت صالحة:

- حبيبي.. إنها نوبة أخرى من نوباتك الحادة. لا تخَفْ. الزيت سوف يهدئك قليلًا.

قام إبراهيم عن الأريكة وهو يصرخ غاضبًا:

- لا لست مجنونًا.. ليست نوبة.. بماذا تحاولين إقناعي؟ أنك لم تخُنيني..

- أخونك؟ مستحيل يا حبيبي!

- لا تقولي حبيبي. اخرسي.

ثم جذبها من ذراعها فقامت عن الأرض متألمة.

- إبراهيم! اترك ذراعي؛ تؤلمني، اهدأ أرجوك.

- كيف أهدأ؟ ألم تخُنيني مع ذلك الحقير؟

وقفت أمامه متحدية:

- مَن؟ مَن هو الحقير هذا؟

- لا أعرف! أخبريني أنتِ.

- لا يوجد حقير ولا غفير.. أنتَ تتوهم.

صمت إبراهيم ولم يجد ردًا مناسبًا، وانتهزت صالحة الفرصة فأكملت:

- إبراهيم.. لقد سئمت نوباتك الجنونية تلك. مرة تتهمني بالخيانة، ومرة تحاول قتلي، ومرة تحاول قتل ابنك لأنك تتوهم أنه سيقتلك.. لم أعد أتحمل.

وكان زين ينظر إليهما وكأنه يشاهد مسرحية سوداوية. يسمع كلام أمه غير مستوعب الأمر.. ولكن لا.. إنها تكذب بوضوح. لأول مرة يراها تكذب. وقف إبراهيم

متردِّدًا.. يشك في نفسه.. لم يعد يعرف إذا كان ما رآه محض وهمٍ، أم أنه حقيقة. ظلَّ يردِّد: «خائنة» ثم توجَّه لغرفته. بكى بكاءً مريرًا وهو يحدِّث نفسه.. «إنها خانتني.. أنا متأكد. لقد رأيت رجلًا في بيتي، ولكنها لم تكن مرتدية ملابس النوم، بل قميصًا قصيرًا..» قام وفتح الدولاب ليبحث عن القميص، فوجده في مكانه. «ولكنني متأكدٌ أنها كانت ترتدي هذا القميص..» عاد إلى فراشه ومسح دموعه. ثم أمسك رأسه بكلتا يديه كي لا ينفجر من الصداع الذي أصابه. صداع رهيب، وشكّ غير عادي في نفسه وفي قدرته العقلية، وإرهاق وكأنه خرجَ من حربٍ طاحنة للتوّ. لم يدرِ بنفسه وقد غط في نوم عميق..

وفي الصالون كانت صالحة جالسة على الأريكة تفكر بعمق.. اقترب منها زين.. وقف أمامها بجسده القصير.

- ماما.. لماذا تكذبين؟

- شششش.

همست تحاول إسكاته. وأردفت:

- ألا تحب أباك؟

- بلى.

- أخبره إذًا أنه كان يتوهم، وإلا فقدتني وفقدته. سوف يقتلني يا زين، ولن تراني مرة أخرى.

ارتعد الولد؛ لا يريد أن يفقد أمه:

- حاضر.

ابتسمت في سعادة لطاعته، لكن ابتسامتها انمحت عن وجهها حين سمعته يقول:

- ولكني لم أعد أحبك. أنتِ خنتِ بابا.

صاحت غاضبة:

- اخرس.. أنتَ لا تعرف شيئًا.

- رأيتكِ.

- ليس كل ما نراه نفهمه على حقيقته.

- مَن هذا الرجل؟

- لا تتكلم كثيرًا. سيسمعنا أبوك. اذهب إلى فراشك.

استفاق زين من دوامة التفكير تلك لينظر في ساعة يده جزعًا. نظر حولَه فوجد الموظفين منهمكين في الإجابة على العملاء، وتذكَّر لولا.. «سوف تعود عن توبتها بسببي! لعلَّها أخبرت هذا القواد القذر لتعود إلى عملها من الليلة.. لماذا قسوت عليها بهذه الطريقة أيها الغبي؟ ولكن.. لماذا أشغل بالي؟ ما شأني بها؟ هه.. أعترف أنها تذِّكرني بماما.. بتاريخها الفاضح القديم.. وكأني أرى مستقبل لولا البائس من الآن رغم كوني لا أعرفها! ولكن أي مستقبل ينتظر امرأة وظيفتها هي العهر؟ ومَن السبب؟ أنا! لا.. لن أسمح لنفسي أن أكون سببًا في أذية غيري قبل موتي بعدة ساعات!»

قام زين من مكانه بسرعة، توجَّه إلى حياة.. كانت تتكلم على هاتفها الشخصي، فوقف ينتظر أن تنهي المكالمة.. «نعم.. لقد تركت الطعام في الثلاجة. سخنه فقط. لا تنسَ أن تأخذ الأولاد من الحضانة».

أنهت حياة مكالمتها، ثم نظرت إلى زين مستغربة فسألته:

- ما زلت هنا؟ حسبتك غادرت.

- لا. مع مَن كنتِ تتحدثين؟

- زوجي طبعًا.. أنتَ تعرف.

- أنتِ سعيدة؟

- اتفقنا ألا نتحدث في أمورٍ شخصية منذ زمنٍ بعيدٍ يا زين. ماذا تريد؟

- أن أطمئن عليكِ.

- اطمئن. لم يؤذني أحدٌ في حياتي سواك. فطالما أنتَ بعيد عني سأكون بخير.

- لهذه الدرجة؟

- هي أشياء لا تُنسَى.

- ولأنني جرحتك وآذيتك، لا أريد أن أكون السبب في أذية غيرك.

- ماذا تقصد؟

- لولا..

- ماذا بها؟

- أريد رقم هاتفها.

نظرت حياة إليه باستغراب، بينما سمعا صوت ماجد من بعيد يقول «حياة.. عودي إلى عملك.. زين. اتركها تعمل لدينا مكالمات كثيرة على الانتظار.. هيَّا.»

- حياة.. بسرعة. أعطني رقم هاتف لولا..

- تعرف جيدًا أن هذا ممنوع! لا يمكننا أخذ بيانات العملاء. ثم ما الذي تفكر فيه؟

- حياة. ليس لدي وقت. أريد رقمها وعنوانها حالًا. أعدك لن أخبر أحدًا.

- زين ممنوع.. لن أفعل!

نظر زين في ساعته متأففًا، لقد مرت ساعة أخرى.. ما أسرع جريان الزمن!

# - الساعة السابعة -

لم يضيّع زين وقته مع حياة في الاستجداء لتعطيه رقم لولا. توجَّه بسرعة إلى الموظف الجديد الذي استقبل مكالمة لولا الثانية منذ قليل. أمرَه بأن يفسح له المجال ليجلس مكانه، حاول أن يبحث عن محادثة لولا المسجَّلة على النظام بأسرع ما يمكن، قبل أن يجيء ماجد فيضطر للخروج من القسم. استغرقت عملية البحث حوالي خمس دقائق حتى استطاع إيجاد البيانات المطلوبة. أخرج هاتفه من جيبه ليبدأ في تسجيل البيانات. وأثناء كتابته لرقم الهاتف جاءت حياة مسرعة:

- زين! ماذا تفعل؟ زين.. قم.. لو سمحت.

كان قد سجل رقم هاتف لولا بنجاح قبل أن تضغط حياة على زر إيقاف تشغيل الجهاز.

- ماذا تفعلين؟

زَعق زين وقد نفد صبرُه.

- أنت تخترق قوانين الشركة.

- وما دخلك؟

- ستفصَل من وظيفتك.

- وما دخلك أيضًا؟ أنا استقلت. افتحي الجهاز.

جلست على المكتب متحدية:

- لن أفعل. لن أسمح لك بأخذ بيانات العملاء لأغراض شخصية. اترك المرأة وشأنها. ماذا تريد منها؟

- لا تفهمين شيئًا! لقد آذيتها. ابتعدي عن طريقي.

قام زين مسرعًا. «لا يهم العنوان. على الأقل معي رقم الهاتف. سأتصل بها. يجب أن أمنعها عن الرجوع لهذا الطريق المظلم. لن أتسبب في أذيتها. لن أسمح أبدًا».

خرج زين من مبنى الشركة الضخم مسرعًا إلى سيارته التي تبدو كعجوز أرهقتها السنين. وقبل أن يفتح باب السيارة أسند ظهره إليه واتصل بِلُولا. «إن الهاتف الذي طلبته مغلق أو غير متاح.. من فضلك...» أنهى زين المكالمة، ثم عاود الاتصال مرة أخرى، ليسمع الرسالة المسجلة ذاتها.. «ما العمل الآن؟ أغلقَتْ هاتفها. سأجن. كيف سأصل لها؟ ماذا أفعل؟»

ركب زين سيارته وأسند رأسه إلى المقعد متعبًا. وبيأس حاول الاتصال بِلُولا مرة تلو الأخرى.. وأمام عينيه تدور كل الذكريات المؤلمة التي مرَّ بها.

***

كان عائدًا من المدرسة عندما لاحظ أن النسوة يتهامسن.. «أمه خانت أبوه.. معقول؟ طبعًا.. الرجل فقدَ عقله مثل جدّه وجِدّ جده.. مرض في العائلة كلها.. خسارة! طفل مثل الورد ما ذنبه؟ ذنبه أبوه. يا حرام..»

صعد الدرج مهرولًا يبكي. طرق الباب بغضبٍ ودخلَ يصرخ في وجه أمه.

- كلهم يتكلمون عنكِ. في المدرسة وفي الشارع.

- قطع ألسنتهم.

- معهم حق.

- اخرس.

ثم سمعا صراخ إبراهيم يجيء من المطبخ. ركضا ليجدا يديه داميتين. «بابا! دم!» قالها زين بهلع، عيناه جاحظتان، ينظر للدماء التي شكلت خطوطًا بطول ذراع أبيه، بينما صرخت صالحة في وجهه: «مرة أخرى؟ كفاك.. ألا تمل؟ ستحاول قتل نفسك كلَّ يوم؟ أقتلك أنا كي نرتاح جميعًا؟ لماذا تفعل فينا ذلك؟ لقد تعبت.. تعبت.. تعبت..» ظلت تصرخ بهذا الكلام حتى انفجرت باكية. سقطت على ركبتيها مثل سقوط عمارة أثناء ضربة زلزال مفاجئ.. لم تقترب من إبراهيم ولم تتفحص الجرح الذي أحدَثَه بسكينٍ حادٍّ في معصمه، إلا عندما نبَّهها زين «ماما ساعديه! اطلبي الطبيب. أرجوكِ لا تتركيه» قالها متوسلًا. استفاقت صالحة من نوبة انهيار حادة لتقوم بثقل، وجسدها لا يساعدها على الحركة.. وببطءِ مَن يسير إلى حتفه راحت تجلب حقيبة الإسعافات الأولية، وعادت متمنية لو تجد جثته بلا نبض في قلبه ولا أنفاس في صدره، لترتاح من كل هذا العذاب.. ولكنه كان حيًّا ويضحك، كأنه لا يشعر بالألم، أو بحجم الكارثة التي فعلها للتو. كأنه سعيدٌ بعذابها وبتخويفها وتدمير أعصابها.. وحاولت هي تضميد الجرح بقدر الإمكان، ثم أخبرت زين أن ينتظرها في البيت بينما تذهب بأبيه إلى أقرب مستشفى.

يتذكر زين عندما عادوا من المستشفى ووجد أمه تبكي، وأباه يضحك بهستيرية. لا يستطيع أن يتوقف عن الضحك.. «بابا؟ لماذا تضحك؟» لاحظ زين أن يديه

مربوطتان بشاش أبيض، وفهم أنهم مثل كل مرة، خيطوا الجرح.

« ماما؟ لماذا تبكين؟ ولماذا يضحك أبي؟» أجابته صالحة بعصبية: «لا تسأل يا زين. لا أريد أن أسمع صوتًا. اخرسا أنتما الاثنين. يا رب خذني لأرتاح أو خذهما». ثم دخلت غرفتها، وفي قلبها يتصارع الإحساس بالذنب مع الشعور بالقهر. لا يكسب أحد في هذه المعركة سوى اليأس التام من إيجاد مَخرجٍ.. أما إبراهيم فكان يدس كلامه في عقل ابنه مثل دس السم في العسل..

- أضحك لأنني لم أمُت يا زين. أقتل نفسي ولا أموت. أقطع شراييني ولا يحدث شيء.. ها ها..

- بابا لا تفعل! لا تقتل نفسك. حرام.

- حرام أعيش يا ابني.

ثم تحولت ضحكات إبراهيم فجأة، وبدون أي تمهيد مسبق، إلى بكاء مرير.

- أريد أن أموت. يا زين.. سكاكين تنهش في قلبي. لم أعد أعرف ما الذي يحدث من حولي. وصالحة تعبت.. تعبت مني.

- لا تتعبها إذًا! لا تحاول قتل نفسك..

- لست أنا.. قوة ما.. تجعلني أفعل ذلك.. لست أنا!

- اهدأ يا بابا.. صدرك يعلو ويهبط.. هذا من البكاء.. كلنا نبكي من العين، لماذا تبكي أنت من قلبك؟

استمرت نوبة البكاء لعدة دقائق، شعر زين وكأنها سنوات طويلة من البكاء الذي لا ينقطع. ومن ثم هدأ.. وقال بأسى:

- أنا عالة. غير مرغوب فيَّ، وهي صارت تكرهني.

- أنا أُحبُّك.

اقترب إبراهيم من زين، وركع على ركبتيه ليصير رأسه بمستوى رأس الولد.. وقال:

- وأنا أُحبُّك يا ابني. أنا آسف.

- لماذا تعتذر؟

- على ما سوف يحدث.

- ماذا سيحدث؟

- سوف يحدث شيء يا زين، لن تنساه.. ستحلم به في منامك. كابوس. أنا آسف لأنني السبب فيه. لأنني بطل الكابوس.

- لا تقل ذلك.. تخيفني.

- وأنا خائف يا زين.. خائف جدًّا.

- ماذا ستفعل؟

- انظر في عيني جيدًا يا زين.. ماذا ترى؟

نظر زين في عينيّ أبيه وهو خائف.. لا يعرف أي كابوس أبشع مِن الذي يراه كل ليلة في منامه يمكن أن يحدث!

- أرى.. دموعًا، عروقًا حمراء، و...

- انظر جيدًا.. وماذا أيضًا؟

- لا أعرف!

- موج.. ألا ترى موجًا؟

- موج؟

- زين.. ألا تحلم كل ليلة بموجة تركض خلفك؟

- نعم.. كابوس.

- أبوك سيخلِّصك من هذا الكابوس.

- كيف؟

- اعلم أنني عندما أفعل ما سوف أفعله، سأكون قد قتلت الموجة التي تأتي في منامك.. وقتها لعلَّ كابوسك سيتوقف. أنا أحاول يا زين ألا أترك لكَ كابوسًا آخر.. أرجوك..

- لا أفهم شيئًا.. هل ستجرح يدك مرة أخرى؟

- لا لا.. سأقتل الموجة. ولن تراني مرة أخرى.

- لماذا؟

- لأنني قوي، محارب.. المحارب يستشهد في سبيل بيته، وأولاده وبلده.

لم يفهم زين كلام أبيه ليلتها، إلا أنه فهم كل شيء بعدها بوقت غير بعيد.

***

وفجأة وصلت لزين رسالة على هاتفه. «الرقم الذي حاولت الاتصال به متاح الآن.» دق قلبه بسرعة. «آه.. أخيرًا» قالها ثم اتصل. سمع رنين الهاتف. انتظر بفارغ الصبر..

«ماذا سأقول لها لو أجابت؟» لم يسعفه الوقت ليفكر إذ ردت لولا بسرعة.

- لولا

- أنتَ؟

- أرجوك لا تغلقي الهاتف.. أعطني العنوان..

- عنوان؟

- عنوانك. ألو؟ ألو.. لولا.. لا.. أرجوكِ لا تغلقي الهاتف.

ولكنها كانت قد أنهت المكالمة. «حسنًا يجب أن أفكر في حل سريع. لن يسمحوا لي بأخذ بياناتها من على النظام. ولن يسعفني الوقت لأستعين بأحد أصدقائي لأسأله إذا كان يعرف أحدًا يعمل في شركة الاتصالات، ومن ثم يخدمني في العثور على عنوانها عن طريق رقم الهاتف. لا بُدَّ وأن هناك طريقة أسرع من كل هذا.. آه.. صحيح.. مندوب المطعم الذي تطلب منه لولا دائمًا. لو وصلت إلى المندوب سأعرف العنوان حتمًا..»

ثم أدار سيارته وانطلق قاصدًا المطعم..

وفي الطريق، شاهد سيدة ذات قوام ملفوف بض، ترتدي تنورة قصيرة شديدة الضيق، ومعطفًا قصيرًا من الفرو.. تتمختر في مشيتها وفي يدها طفل صغير يبدو أنه في السادسة أو السابعة من عمره، يبكي ويحاول التخلص من يدها فتجذبه باتجاهها وتكمل طريقها في ميوعة غير مبالية بصراخ الولد.. كانت الشمس قد سحبَتْ أشعتها وابتعدت، تاركة الإسكندرية تحت أضواء المصابيح

الصفراء. جلبة وصخب يُحدِثه الباعة على الكورنيش، ورائحة ذُرة مشوي وفشار مالح تسبح في الجو.. تذكَّر زين مشهدًا مشابهًا لهذا تمامًا.. «كل شيء يذكِّرني بماضَّي.. كل شيء يدفعني للجنون».

***

- اتركيني.. أنتِ خائنة.. خنتِ أبي.

- اخرس يا غبي.

كانت صالحة تمسك بيد زين وتجذبه باتجاهها وهو يحاول الهرب.. يريد أن يهيم على وجهه في شوارع الشاطبي التي يحفظها عن ظهر قلب. يريد أن يعود إلى البيت.. إلى أبيه المظلوم. جذب ذراعه من يدها بعنف قبل أن يقول بعصبية:

- تخدعينه. لقد رأيتُ الرجل بعيني. ذا الحذاء البني والوشم الغريب. رأيتكِ معه. رأيتك تخلعين الفستان الأحمر.. رأيت كل شيء فلماذا تكذبين؟!

وقفت صالحة في منتصف الرصيف فجأة، نظرت لزين بغضبٍ وجلست على ركبتيها وأمسكته من ذراعيه. وقتها كان زين يشم رائحة الذُّرة المشوي ذاتها، رائحة الفشار المملَّح ذاته.. تحت أضواء المصابيح الصفراء.. نظرت صالحة في عينيه، وكان الموج يحدُث صخبًا، وكأن البحر غاضبًا من شيءٍ.. هكذا شعر زين، فتسارعت دقات قلبه الصغير.

- تريد أن تعرف الحقيقة؟

- نعم.

قالها زين وهو يبكي.

- كنت سأخبرك عندما تكبر.

- أنا كبير كفاية لأفهم. أخبريني ماذا يحدث؟

- أنتَ اخترت. تحمَّل مسؤولية اختيارك.

ثم اعتدلت واقفة، ومسكت يده وأكملا طريقهما.. وبدأت في سرد الحكاية على صغيرها الذي أجبرته الظروف أن يستوعب أكثر مما يجب، وأن يعرف ما لا يصح أن يعرفه الأطفال في عمر العاشرة.

- قبل أن أعرف أباك.. لم يكن هناك من يريد أن يتزوجني.

- ولكن.. قلتِ أن أولاد الجيران جميعًا، وكل الشباب في الشاطبي...

قاطعته قبل أن يكمل كلامه:

- كنت أكذب. كنت أكذب يا زين. لم يحبني أحدٌ قَطّ.. ببساطة، وأنتَ اخترت أن تعرف.. كنت.. سيئة السمعة. طبعًا أنت تعرف.. تسمع كلامًا يتردد هنا وهناك.. عنِّي.

- ولم أفهم أبدًا لماذا؟ ماذا فعلتِ ليتجرؤوا على الخوض في سيرتك أنتِ بالذات؟ ماذا حدث؟

- هذا صعب عليك.. متأكد أنك تريد أن تعرف؟

- متأكد.

- الجميع كانوا يعرفون أنني أرافق الرجال لأوفر المال الذي سأعيش به. أبي هو السبب. كان سكيرًا. أكرهه. لا أريد أن أتحدث عنه الآن.

- بلى. أريد أن أعرف.. لم تحدِّثيني أبدًا عن أبيك.. ولا أمِّك! لم أرَهما من قبل.. ما زالا أحياء؟

- ماتا..

قالتها بعنف وبوجه ممتعض، كأنها أكلت أكلة فاسدة مثيرة للاشمئزاز.. قالتها وكأنها تتقيأ كراهية امتلأت بها روحها، وأردفت:

- ماتا.. ولكنهما لم يتركا لي قرشًا واحدًا. تركا لي الهم والغم واختفيا. وأنا ضِعتُ في الدنيا يا زين.. لم أعرف كيف أتصرف ولا ماذا أعمل.. لم أتعلم.. ليس لدي مؤهل عالٍ.. وقتها..

بدأت الدموع تترقرق على خديها..

- وقتها تعرفت على الرجل الذي رأيته في الصالون.

- صاحب الوشم؟

- نعم.. نعم يا زين. تعرَّفت عليه وأنقذني من الفقر، يمكنك أن تعتبره مثل خطيئة في حياتي، ولكن خطيئة لا بُدَّ منها. ذهبت معه في طريق لا عودة منه. ولكن وقتها عرفت كيف أحصل على المال.. كيف لا أموت جوعًا، وكيف لا أطرق الأبواب بحثًا عن الدفء واللقمة.

- كيف؟

- ما زلت صغيرًا. لن تحب أن تعرف. ولكن هذا الرجل، عرَّفني على رجال آخرين.. رجال أثرياء.. أسلِّيهم، ويعطونني المال.

- تسلِّينهم؟ مثلما فعلت مع صاحب الوشم في الصالون؟

- لا.. لقد أحببت هذا الرجل يا زين.. هذه خطيئتي الثانية.

- وأبي؟

- لا أحبه.

- لماذا تزوجته؟

- كنت أحاول التكفير عن خطيئتي، ومحو تاريخي السيئ.

- لم يُمحَ؟

- لم يُمحَ.. الناس ينسون كل الخير الذي تفعله، ولكنهم أبدًا لا ينسون زلاتك وخطاياك.. لا ينسون أبدًا.

- ماذا حدث بعد ذلك؟

- تعرفت على أبيك.. إبراهيم. الوحيد الذي أحبني، وعاملني كإنسانة. طلب مني الزواج بعد شهر واحد من تعارفنا، وقع في حبي.. كنت أستغرب جدًّا.. لماذا يحبني؟ وهو يعرف عني كل شيء.. كل شيء سيئ يا زين، كان يعرفه. ومع ذلك أحبَّني، واختار أن يتزوجني رغمًا عن أنف عائلة الحسيني كلها.

- ولكن يا ماما.. ما ذنبي؟ هل أخطأت لأعاقَب؟ لأن أصدقائي مثلًا.. لديهم آباء وأمهات متحابين. كنت أريد أن نكون مثلهم.

- لا تصدق ما تراه دائمًا يا زين.. لا أحدَ في الحقيقة مثلما يبدو.. أنت ترى صورتهم المثالية، وتظن أن الجميع سعداء.. ولكنك لا تعرف أسرار البيوت.. انظر.

وأشارت صالحة إلى بناية قديمة بها نوافذ.. منها

المفتوح على مصراعيه ومنها المغلق.. نظر زين للبناية ليرى من خلال النوافذ المفتوحة ستائر وأنوارًا.. سألته صالحة:

- هل ترى هذه البيوت؟

- نعم

- خلف كل نافذة من هذه النوافذ حكايةٌ لا يعرفها سوى من يعيشها.

هزَّ زين رأسه متظاهرًا بالفهم، وعندما أخذته صالحة من يده وأكملا طريقهما بجوار الشاطئ، فرَّت دمعة ساخنة من عينيها لتلهب وجنتها.

- يا زين.. أعرف أنني لستُ الأم التي كنت تحلم بها، وأن أباك ليس الأب الذي يتمناه طفلٌ في عمرك. ليس لك ذنبٌ في أي شيءٍ.. الحياة وضعتك في ظرف صعبٍ لا يدَ لك فيه. ولكن ثِق أنني تركت عملي، ولن أعود له أبدًا.

- أي عمل؟

- عملي السيئ يا زين.. عملي السيئ. تركته. من أجلك.

- وبابا أيضًا.. ترك العمل.

- أبوك تم طرده. استغنوا عن خدماته عندما تعدَّى بالضرب على أحد الطلاب، وبسبب تصرفاته غير المفهومة الناتجة عن مرضه. نحن في مأزق يا زين. لم يعد لدينا من المال ما يكفي لنعيش.. مرَّ عام كامل بدون دخل مني أو من أبيك.. عام بدون عمل، وقد تداينت لأوفر لك احتياجاتك الضرورية، ولكن قواي انهارت يا زين.. لم أعد أحتمل. ماذا أفعل؟

- أي شيء، إلا أن تعودي لعملك السيئ.

- لن أفعل.. لن أفعل يا زين.

***

استفاق زين من شروده عندما وصل إلى المطعم المنشود. ركن سيارته إلى الرصيف وضحك في مرارة «كنت طفلًا ساذجًا.. وغبي.. ولكن لا.. لن أسمح للولا أن تصير نسخة من أمي. على الأقل لن يحدث هذا بسببي أنا».

***

الزمن بطيء جدًّا لمن ينتظر..

سريع جدًّا لمن يخشى

ويليام شكسبير

# - الساعة الثامنة -

لفترة قصيرة، وقف زين أمام المطعم يترصد. وجد ثلاثة طيارين جاهزين لينطلقوا بوجبات الطعام الساخنة فوق دراجاتهم البخارية. لفحه الهواء البارد عندما ترجل من سيارته، وشعر بخوف غريب لا يعرف مصدره. رائحة الطعام سريع التحضير تفوح في الشارع.. رائحة زيت محروق ودجاج مقلي نفرته من تناول الطعام رغم خواء معدته. وقف زين أمام الطيارين ينظر إليهم ولا يعرف كيف يبدأ حديثه. بادلوه النظرات متسائلين عما يريده هذا الشاب العبوس.

- لو سمحتم.. من منكم كان يوصل الطعام كل يوم إلى بيت امرأة عازبة؟

- نعم؟

- كان هناك امرأة، حتى اليوم.. كانت تطلب يوميًّا الوجبة ذاتها..

فردَّ أحدهم..

- نعم.. مَن أنت؟

قال زين متفائلًا:

- إذًا أنت المندوب الذي يوصل لها الطعام يوميًّا؟

- نعم.. لماذا؟

قال زين موجهًا كلامه للطيارين الآخرين:

- حسنًا شكرًا لكما. لا أريد تعطيلكما عن العمل.. أرجوكما اذهبا.. أريد أن أتحدث مع هذا الرجل الطيب في

شأن شخصي لا أكثر.

فنظرا له باستغراب، وهز صاحبهما رأسه سامحًا لهما بأن يسبقاه فانطلقا..

وضع زين يده على كتف الطيار بودٍّ، وقال:

- إنها خدمة إنسانية يا صديقي.. عرفنا أن هذه السيدة عزمت على الانتحار.

- مَن تقصد بعرفنا؟

- نحن.. أصدقاؤها.. اتصلت بي وأخبرتني أنها ستنتحر وأغلقت الهاتف، ومن وقتها لم تظهر.. أنا خائف جدًّا عليها.

ثم تظاهر زين بالتأثر ونكس رأسه وزمَّ شفتيه.. اقترب من أُذن الطيار وهمس:

- نحن مرتبطان.. وحدث خلافٌ بسيطٌ بيننا، ولكنها انهارت تمامًا وغضبت مني.. تظن أنني خنتها مع صديقتها.. تخيَّل؟ جلبت لها هدية وأريد أن أزورها.

تساءل الطيار بفضولٍ بعد أن أعجبته القِصَّة:

- خنتها؟

- طبعًا لا! هي تظن ذلك. أنا أحبُّها.

- وماذا تريد مني؟! لم أفهم.

- عنوانها.

قال الطيار باستغراب مشككًا:

- مرتبطان ولا تعرف عنوانها؟

دفس زين يده في جيبه وأخرج المحفظة.. التقط ورقة من فئة مائتين جنيه، ووضعها في يد الطيار وهو يقول:

- هي من عائلة محافظة.. لا يمكنني أن أزورها في البيت، ولم تجيء مناسبة لأسألها عن عنوانها.. ظننت أنني لن أحتاجه إلا عندما يجيء الوقت الذي سأقابل والدها فيه لطلب يدها. فهمت؟

أخذ الطيار الورقة النقدية وهو في غاية السعادة وقال:

- بسيطة.

حفظ زين العنوان عن ظهر قلب، وطار بسيارته إلى هناك وهو يتخيل مقابلته مع لولا.. «ستخاف منِّي. بحثت عن عنوانها وسرقت بياناتها وفجأة تجدني أمامها. ماذا سأخبرها؟ يا لولا لا تعودي للبغاء؟ ستقول: وما دخلك؟ على الأقل ستسألني: مَن أنتَ من الأساس؟ ماذا سأقول لها؟ كيف سأشرح لها أنني مهتم بألا أؤذي أحدًا قبل موتي بعدة ساعات؟ وكيف ستصدق أنني أعرف نهاية الطريق الذي مشَت فيه؟ وأنني أشعر بذنب مميت يعذبني ويمنعني من المضي في طريقي قبل أن أتخلص منه؟»

بعد صراع طويل مع الزحام في الطريق، وزخم الأفكار المرهِقة في عقله، وصل إلى العمارة رقم ١٢ القابعة مثل ندبة قديمة في أحد شوارع الشاطبي، والتي تمتاز بالهدوء والانعزال عن صخب المدينة.. أشجار كثيفة على الصفين تشابكت أوراقها في حُبٍّ. تتراقص الأوراق فيبدو وكأن ضوءَ القمر يتحرك.. ينير وينطفئ، ويرسم أشكالًا بعشوائية على جدران المباني. انقبض قلبُ زين عندما

نظر إلى نافذة الطابق الثاني ليجدها مغلقةً ومنسدل من خلفها ستارٌ غامق اللون. وكأن هذه الشقة بالذات سابحة في الظلام، وبعيدة كل البُعد عن بهجة الطبيعة المنبعثة من الأرض والسماء والشجر.

«يجب أن تكون هذه هي شقة لولا» قالها في نفسه، ودلف من بوابة العمارة ثم استخدم المصعد ليرتقي إلى الطابق الثاني. وأمام الشقة رقم ٤، وضع إبهامه على مكبس الجرس مترددًا.. همَّ أن يعود أدراجه فابتعد عن الباب متجهًا إلى الدرج، ثم وجد نفسه فجأة يعود إلى شقة رقم ٤ ويضغط الجرس بسرعة قبل أن يستسلم للتردُّد.

مرت دقيقة وكأنها دهر كامل قبل أن ينفتح الباب ويظهر من خلفه رجلٌ مسنٌّ، يبدو وكأنه في أواخر السبعينيات. يرتدي نظارة طبية ذات إطار بني من طراز قديم، و «رُوب» من الصوف البني الداكن طويل الأكمام.. ارتبك زين وهو يفكر ماذا يجب عليه أن يقول:

- معذرة.. هل لولا هنا؟

لم تبدُ على وجه المسن أيُّ علامة اندهاش، وكأن من الطبيعي أن يجيء أحدهم ليسأل عن لولا.. قال الرجل:

- لولا هربت.

تفاجأ زين بصوت الرجل الغريب الذي بدا وكأنه قادم من أعماق البحر، ثم وفي خطوات بطيئة ابتعد الرجل عن الباب متجهًا إلى الداخل تاركًا الباب مفتوحًا، وكأنه يدعو زين للدخول! تردَّد زين للحظة قبل أن يدلف من الباب

ويتبع الرجل.. صوت موسيقى يجيء من غرفة قريبة، وعندما جلس الرجل على كرسي صغير بالقرب من النافذة المطلة على الشارع، عرف زين أن الموسيقى تجيء من جرامافون قديم، لسان رفيع تدور من تحته أسطوانة تئن بموسيقى كالبكاء، مما أثار الشجن في نفس زين. أشار الرجل لزين أن يجلس على الكرسي المقابل. جلس زين مستغربًا من نظرات الرجل له. ينظر إليه من خلف عينين زجاجيتين لونهما باهت. يفتش في وجه زين عن شيءٍ ما! وشجرةٌ مشاغبة تداعب زجاج النافذة وكأنها تطرقها ليسمحا لها بالدخول ومشاركتهما الحديث.

- ولكن.. عذرًا.. هل أنت أبوها؟ لماذا هربت لولا؟

وعندما لم يجِب الرجل تعالى صوتُ آلة التشيلو، ليتخيل زين أن العزف صار نزفًا، وليتذكر أن الحياة ليست سوى ساعات قليلة نعيشها في أسى، ونمضي.. التقط الرجل سيجارًا من على الطاولة المقابلة لكرسيه، وبدأ الدخان الذي ينفثه يرقص مع الأنغام الحزينة، ولكن زين قرَّر أن يقطع هذا الصمت الثقيل مرةً أخرى لعله يعرف مكان لولا. قال في نفسه إنه سيقابلها ويعتذر لها عن المكالمة إياها «سأخبرها أنني آسف، وألا تعود للبغاء بسببي.. سأعتذر وأذهب في طريقي لينتهي كل هذا. لا أريد أن أعيش».

- أنا زين الدين الحسيني، مشرف في شركة X customer service company. في الحقيقة لولا عميلة مميزة لدينا، وقد قررت الشركة أن تكافئها بجائزة مالية.. لذلك أتيت لأحدد معها موعد لـ...

- هاها..

قاطع المسن زين بضحكة ساخرة، ثم قام من مكانه ببطء من يحمل أثقالاً فوق ظهره:

- ماذا تشرب؟

- لا لا.. شكرًا ليس لدي وقت.

- بلى.. ستشرب.

- أرجوك استرِح.. لا أريد أن أتعبك.. أريد فقط أن أعرف...

قاطعه الرجل في نفاد صبرٍ:

- شاي إذًا..

وتركه وذهب في خطوات ضيقة إلى المطبخ. «ما هذا الرجل المجنون؟! ليس لدي وقت لهذا الهراء».

جلس زين دقيقة يتفقد المكان بعينيه. البيت غريب.. كل قطعة فيه باهظة الثمن، ومختارة بعناية.. مساحة البيت واسعة، والأرضية من الرخام الرمادي المطعم بخطوط نحيلة سوداء وبيضاء، ورق الحائط أيضًا أسود وبه زخرفة بارزة بنفس اللون. الستائر بيضاء من الشيفون الناعم، والنوافذ الزجاجية كلها مغلقة.. ضوء أصفر ضعيف ينبعث من نجفة بها بلورات زجاجية دائرية.. الأرائك من الجلد الأسود، والسجاجيد كانت نمورًا ذاتَ يومٍ، انسلخت جلودها ونامت على أرضية هذا البيت مثل جثث بنية مخططة بالأبيض والأسود.. شَعَرَ زين وكأن البيت به طاقة شر. بيت قاتم وقابض للروح، وقطع تفكيره هذا الرجل المسن الذي عاد بصينية عليها كوبٌ من الشاي،

وكأس مياه.

وضعها على الطاولة التي تتوسط الكرسيين المتقابلين بيدين مرتعشتين، وجلس على كرسيه وهو ينظر لزين ويبتسم ابتسامة غير مفهومة، وغير مريحة.

- تفضل.. اشرب.

- أنا فقط أريد أن...

قاطعه الباشا بإصرار وهو يشير إلى صينية الشاي:

- اشرَب يا زين.. اشرب.

شرب زين قليلًا من المياه على مضض ووضع الكأس مكانه وقال:

- أين يمكنني أن أجد لولا أيها الرجل الطيب؟ أقصد لكي تستلم الجائزة.

- جائزة إذًا؟

- نعم. نحن نعطي جائزة لعملائنا المميزين، في الحقيقة هناك أكثر من جائزة و...

قاطعه الرجل:

- فعلًا؟

ارتبك زين وشعر وكأن الرجل متأكد أنه يكذب.

- هربت.. لن تجدها.

- هل أنتَ والدها؟ عذرًا لو كنت أتدخل، ولكن...

- نعم.. يمكنك أن تقول ذلك.

- وهل لديها صديقات يمكن أن تلجأ لواحدة منهن مثلًا؟

- اسمع يا ولد.. دعك من لولا الآن.. احكِ لي عنك قليلًا. فمثلما ترى.. أنا رجل وحيد هنا.

- نعم؟

- أقول أخبرني عنك.. دعنا نتحدث قليلًا.. هل تمانع أن نصير أصدقاء؟

- أصدقاء؟!

- بالضبط.

- ليس لدي مانع ولكن.. عندي ميعاد مهم. يجب أن أذهب بسرعة.

- أنت تضيع وقتك في الأشياء غير المهمة.

- نعم؟ وماذا تعرف عني لتقول ذلك؟

- ربما أعرف أكثر مما تتصور.

ضحك زين ساخرًا وهو يخفي ارتباكه، ثم قام يستعد للخروج من هذا البيت الغريب بأقصى سرعة:

- آسف عندي موعد.. أرجوك أعطني أيَّ عنوان يمكن للولا أن تذهب إليه.

- يبدو أن شركتكم حريصة على إعطاء الهدايا للعملاء.

قال زين بنفاد صبرٍ:

- أنا مدين لها باعتذار. هذه هي الحكاية.

تناول الرجل نوتة صغيرة وقلمًا كانا موضوعين على الطاولة، وخطَّ شيئًا وقطع الورقة ثم أعطاها لزين.

- ربما تجدها هنا.

- فعلًا ؟! أشكرك.. أشكرك.

قام زين متوجهًا لباب الشقة. بعد أن صار في الشارع شعر وكأنه خرج من السجن للتو؛ فإحساسه في وجود هذا الرجل الغامض كان يربكه ويشعِره بالتوتر والقلق.

ركب زين سيارته وهو يتساءل في ريبة «مَن هي لولا؟ ومن هذا الرجل؟ ماذا يحدث لي؟ هناك شيء غير مفهوم.. وليس لدي وقت.. ليس لدي وقت» ثم وضع رأسه على مقود السيارة وأغمض عينيه قليلًا.. كان متعبًا.. متعبًا جدًّا. يريد أن ينام، وجائع يريد أن يأكل «ولكن لا.. ليس لدي وقت لفعل ذلك..» رفع رأسه عن المقود فجأة وأغمض عينيه وفتحهما وهز رأسه محاولًا أن يطرد فكرة النوم من رأسه. ثم انطلق بسيارته إلى العنوان المكتوب في الورقة.. وقد تذكَّر تفاصيل أكثر عن تلك الليلة الملعونة.. ليلة من ليالي يناير الحزينة، عندما فقدَ والده للأبد.

***

- بابا، لماذا تبكي؟

كان إبراهيم جالسًا على الأرض منكسًا رأسه في منتصف صالة البيت.. يدلك جبينه بيده اليمنى، ويسند بالأخرى إلى الأرض.. يبكي وكأنه هُزمَ في معركة مصيرية للتو.. لم يرفع رأسه لينظر في عيني طفله الذي لا يستوعب ما يحدث. ردَّ من بين دموعه بصوت متقطع:

- وجع.. في رأسي.

- صداع يا بابا؟

- حرب.. حرب في عقلي.

- أقول لماما تجلب لك خلطة الزيوت؟

- لا تنفع. في دماغي حرب.

ثم هدأ قليلًا وحاول أن يمسح دموعه. كان كلما مسح دمعة تسيل أخرى على خده. نظر إلى زين فرآه من خلف الدموع وكأنه يسبح ويهتز في مكانه.

- زين...

- نعم يا بابا.

- تعرف أنني أحبك بصدق؟

- طبعًا.

- خذ بالك من نفسك.

استغرب زين وقال:

- بابا! أنت مسافر؟

- نعم. مسافر.

- متى ستعود؟

- لن أعود.

سكت زين.. كان يريد أن يبكي، وتسيل الدموع من عينيه مثل أبيه، ولكن عيناه جافتان، وقلبه دامٍ.. ووضع إبراهيم رأسه الكبير على صدر زين الضيق.. ضمَّ الولد رأس أبوه وملس على شعره.. وبدأ في تدليك رأسه.

- بابا.. سأشتاق لك.. لا تتأخر أرجوك.

- لا أستطيع.. لقد تعبت. يجب أن أرتاح.

- مِن المرض؟

- لا أعرف.. أين أمك؟

- نائمة يا بابا.

- سأخبرك بسِرٍّ.

مسح إبراهيم دموعه واعتدل في جلسته.. نظر حوله ليتأكَّد أن صالحة ليست موجودة، وأن الكلام الذي سيخبر به ابنه الآن لن يسمعه سواه.. كفَّ عن البكاء وصار يتكلم بجدية.

- زين.. أمك كاذبة.

ارتبك زين وتساءل بينه وبين نفسه: «هل عرف بابا السر؟ أن الرجل ذا الحذاء البني ليس وهمًا؟ وأنه رآه في الصالون بالفعل؟ هل تأكد من خيانة زوجته له؟!»

- كيف يا بابا؟ هل أمي تكذب؟

- تكذب يا زين.

- في أي موضوع؟

- موضوع لن يخطر على بالك. هي لا تعرف أنني عرفت، ولكنني عرفت الحقيقة، ولذلك سأسافر.

- عرفت الحقيقة؟!

- طبعًا.. لست غبيًّا. ولكن هل تعرف؟ هي حقيقة مريحة. أنت الكسبان يا زين. اختارك الله ليخلصك من الغم، حتى لو على حسابي.

- لا أفهم.

- زين.. اسمعني. ولا تنسَ ما سأقوله طوال عمرك.. أمك كذبة كبيرة.. وأنا كذبة. أريدك فقط عندما تعرف الحقيقة أن تتذكر كم أحببتك. أحببتك أكثر من أي أحدٍ. رغم مرضي، رغم جنوني، رغم عجزي عن حمايتك ومراعاتك، إلا أنني أحبُّك.. وأحيانًا الحب يكفي. ولكن.. لديك مهمة صعبة.. مهمة كشف الحقيقة. لا أريد أن أثقل بها عليك الآن يا ابني. الحقيقة دائمًا ثقيلة، وأنت طفل وتحملت الكثير. أشفق عليك منها.

- أخبرني يا بابا. أخبرني ولا تقلق. سأتحمل.

عادت دموع إبراهيم في الهطول كأمطار الخريف المتردِّدة:

- لا أعرف إذا كنت ستتحمل أم لا. ولكن أنا.. أنا ضعيف جدًّا يا زين. لم أتحمل.. رغم سني الكبير، ورغم أنني رجل، إلا أن الحقيقة قتلتني. هناك سكاكين تذبح قلبي الآن، أشعر بها، وقِطَع زجاج تقف في حلقي، وروحي تختنق.. لا أستطيع التنفُّس.. لا أستطيع أن أوضِّح لك قصدي، ولا أستطيع أن أتكلم وأقول الحقيقة.. لا أحد يصدق إبراهيم المجنون يا زين.. أنا إبراهيم المجنون.. كل كلامي جنون، وإذا أخبرتُكَ أنتَ نفسك لن تصدقني.. لا أحد غيري يعرف أنني عاقل.. أنا عاقل يا زين.. أبوك عاقل.

- بابا.. سأصدقك.

- سأخبرك إذًا ولكن.. هل ستتماسك بعدها وستصير قويًّا؟

- لست طفلًا. أنا رجل يا بابا. عمري عشر سنوات..

كبرت.

- سأخبرك.

ضم إبراهيم زين بقوة، وكأنه يريد أن يدخله في صدره، وصعِقَ عندما رأى شبحًا يقف أمامه بقدمين حافيتين.. فدفع زين عنه بحركة غير إرادية.

- صالحة؟

- هل تحاول قتل الولد؟

قالتها ونظرة شر تنفذ من عينيها وتخترق قلبه.

- ماما. بابا يحضنني فقط. تعرفين أنه شُفيَ؟ أشعر وكأنه صار عاقلًا جدًّا.

نظرت صالحة لزين باستغراب ثم نظرت لإبراهيم:

- ماذا قلت للولد؟

- أنني عاقل.

ضحكت بسخرية:

- هه.. وسيد العاقلين.. طبعًا.. لا شك في ذلك.

ثم وجهت كلامها إلى زين:

- اذهب إلى غرفتك يا حبيبي. أريد أباك على انفراد.

لم يعرف زين إلا بعد ساعةٍ من حديثه بينه وبين أبيه، أنها كانت آخر مرة سيحدِّثه فيها، ولم يعرف ما الذي دار بينه وبين أمه في خلال هذه الساعة التي جلس فيها مجبرًا في غرفته. سمع صراخًا، وسمع بكاءً.. سمع أشياء تتكسر، وخاف أن يخرج لينظر.. ثم انفتح باب غرفته بقوة.. أخذته

أمه من ذراعه وهرعت إلى خارج المنزل.. هبطا السلالم وركضا.. لا يفهم لماذا يركضان ولا إلى أين.. فوجئ بعد دقائق من الركض بأبيه يسبقهما.. واستنتج أنهما يركضان خلفه. كان قد قطع الشارع السريع واختفى عند الشاطئ.. حملته أمه على ذراعها وركضت به قاطعة الطريق، باحثة عن إبراهيم. وجدته يسرع باتجاه البحر.. «إبراهيم.. إبراهيم..» صرخت بأعلى صوت وصرخ زين مناديًا: «بابا.. بابا.. البحر يا بابا.. خطر.. سيبتلعك.. بابا»، ولكن إبراهيم كان قد قطع مسافة لا بأس بها بداخل البحر.. الأمواج عالية والشمس ذهبت تاركة الدنيا في ظلامها المخيف. لم ينسَ زين نظرة أبيه عندما استدار ونظر إليه من بعيد. ودَّعه بيديه وابتسم في هدوءٍ، ثم تقدم للأمام كأنه يمشي في طريق بَري.. كأنه لا يوجد موج، ولا يوجد خوف.. ظلَّ يمشي للأمام حتى اختفى تحت صفحة المياه. صرخ زين وبكى.. ظلَّ يضرب أمه ليلتها بيديه الصغيرتين: «أنت السبب.. أغضبتِه.. سمعتك تصرخين. لماذا أغضبته وهو مريض؟ أكرهك.. أكرهك.. ليتك متِّ أنتِ» يذكر أنها كانت تبكي هي الأخرى، ويذكُر أيضًا أن بكاءها دام ساعة، وأن بكاءه دام شهورًا طويلة، وأن عينيه الجافتين صارتا مثل نهريّ دجلة والفرات، منذ ليلة فقدان أبيه. ويذكر في تلك الشهور، أن الرجل صاحب الوشم الغريب ظلَّ يتردد كثيرًا على بيتهم، وكان يسمع ضحكات أمه في غرفة أبيه الراحل، مع ذلك القذر.

***

# - الساعة التاسعة -

وصل زين إلى العنوان المكتوب، ليجد عمارة متواضعة، ثلاثة طوابق من الطوب الأحمر.. مدَّ رقبته من نافذة السيارة ليجد ملابسَ فاقعة الألوان لسيدة، صفَّت على الأحبال التي امتدت أمام شرفة الدور الأول.. «لا بُدَّ وأن العنوان صحيح.. كانت لولا لترتدي مثل هذه الفساتين فاقعة اللون.. فماذا تتوقع من مومس أن ترتدي؟!»

الشارع كان مظلمًا، خاليًا من مصابيح الإنارة. قطة صغيرة تموء، تبحث جائعة عن بقايا طعام في صندوق قمامة مقلوب على جانبه، وكلب بلدي باهت اللون يلصق جسمه النحيل بعجلة سيارة مركونة لعلَّه يشعر بقليل من الدفء. ورغم برد الليل إلا أن هناك ثلة من الأطفال يُحدِثون صخبًا، ويلعبون بالكرة وسط الشارع الضيق. وقبل أن يترجل من سيارته لمح فتاة ترتدي بنطالًا من الجينز المقطع من عند الفخذين ليظهر من تحته بياض بشرتها، ومن فوقه ارتدت الفتاة معطفًا قصيرًا.. وأكثر ما لفت نظره شعرها القصير، المحلوق مثل الرجال.. وبجوارها شاب يرتدي بنطالًا واسعًا وسترة طويلة واسعة، تكاثرت في يده خواتم فضية ضخمة.. مدَّ الشاب يده ليمسك الفتاة من وسطها فدفعته عنها بعنفٍ، مما أثار غيظ زين. «وما دخلي أنا! لن أضيع وقتي في مناوشات مع متحرش. ليس لدي وقت» ولكن زين لاحظ أن الفتاة وقفت منزعجة، وأن الشاب كان يضحك غير مبالٍ. فترجل من سيارته لا يلوي على شيء. لا يعرف ماذا يريد أن يفعل ولا ما الذي سيقوله ليبعد هذا الشاب المتحرش عن

البنت.

- لو سمحتِ يا آنسة.

قالها زين بصوت عالٍ ليتلفت الشاب والفتاة نحوه، أردف سائلًا:

- هل تسكنين في هذه البناية؟

دون أن تجيبه دارت نظرات الفتاة بين زين والبناية باستغراب، ثم حدقت في وجهه وقالت:

- مَن أنت أصلًا؟

تنحنح زين قبل أن يقول:

- أبحث عن سيدة تدعى لولا تسكن في هذه البناية، وعندما وجدتكما تتجهان إلى البناية ذاتها قلت لأسألكما..

قال الشاب ذو الخواتم الفضية، وضحكة بغيضة ملأت وجهه:

- أنت أيضًا تريد لولا؟

وضحكَ ضحكة استفزت زين، ثم وضعَ يده على كتف الفتاة مرة أخرى، وللمرة الثانية دفعت يده عنها ونظرت له بغضبٍ.. فقال الشاب لزين ساخرًا:

- لولا تريد المال، ولكن لا تريد للزبون أن يلمسها.. ها ها..

بحدة ردت الفتاة:

- اخرس!

قال زين غير مصدقٍ:

- أنتِ؟! أنتِ لولا؟

وقالت لولا مستدركة الأمر:

- لا.. لا تخبرني أنك أنت.. زين؟

- نعم.

قال الشاب ذو الخواتم الفضية ساخرًا:

- فرصة سعيدة يا زين، فرصة سعيدة يا لولا.. ها؟ أترككما على انفراد؟ ها ها..

سأل زين لولا مستاءً:

- صديقُكِ؟ أم..

- ما دخلُكَ؟

ردت لولا بعنفٍ. فقال زين مستجديًا:

- لولا.. لو سمحتِ.. أريد أن أتحدث معكِ ولو خمس دقائق وسأذهب. أرجوكِ.

بدت علامات الغضب على الشاب ذي الخواتم الذهبية واقترب من زين ضامرًا إليه الشر، ولكن لولا أوقفته بإشارة واحدة منها:

- إنه صديق.

أعطت صاحبها مفتاحًا وأخبرته أن يسبقها إلى البيت.. واقتربت من زين وهي تنظر له متحدية:

- كيف عرفت طريقي؟

- لا يهم.. لا تفعلي يا لولا.

- ماذا؟

- لا تذهبي مع هذا الشاب. لا تدخليه بيتك.. لا تعودي عن توبتك.. على الأقل بسببي.. اسمعي أنا.

قاطعته لولا بضحكة تحمل كثير من السخرية والألم:

- لماذا جئت؟ لتقول هذا الكلام؟!

- في البداية نعم.. ولكن حدثَتْ أشياء غريبة، أريد توضيحًا منكِ يا لولا. أرجوكِ.

- ماذا حدث؟

- سأحكي لكِ، ولكن عديني ألا تعودي عن توبتك.

أشاحت بوجهها:

- هذا ليس من شأنك.

- أنا السبب.

- لا.

- بلى! لولا..

- لا تتكلم في هذا الموضوع.

- أعرف أنك غاضبة منِّي، ولكن هذا أمر لا عناد فيه.. اسمعي.. أنا لا أعرفكِ، ولأول مرة أراكِ، وقد بذلت جهدًا لأصلح خطئي، عندما كلمتك بطريقة غير مناسبة في الهاتف.. أنتِ لا تعرفين كيف تأثرت بكلامك.. وأنا...

قاطعته لولا مستنكرة:

- في البداية كيف جئتُ إلى هنا؟

- ذلك الرجل الغريب أعطاني العنوان.

- رجل غريب؟

- الذي تصل طلبات المطعم إلى بيته. مَن هذا الرجل؟

صمتت ولم تجبه فزاد فضوله:

- أبوكِ؟

- طبعًا لا.

- كنتِ تعيشين عنده؟

- لا!

- لم أعد أفهم شيئًا.. قال الرجل إنك هربتِ وأعطاني هذا العنوان! إذا لم يكن أبوك ولا تسكنين عنده، لماذا كانت طلبات المطعم تصل يوميًّا إلى عنوانه؟

لمح في عينيها نظرة ارتباك، وكأنها تريد أن تخفي شيئًا ما:

- أي مطعم؟

قالتها مرتبكة، فعاود الاستجداء:

- لولا.. أريد أن أساعدك، وصدقيني ليس لدي الكثير من الوقت.

- ما شأنك بي؟! ماذا تريد؟ ألم تخبرني ألا أتصل بشركتكم مرة أخرى؟ وألا أتكلم معكم؟ وأنني أعاني من الفراغ التام وإنسانة سيئة؟ اتركني وشأني!

- آسف على كل ما قلته ذاك اليوم. أنتِ لا تعرفين ما الذي أمرُّ به. لا تعرفين أيَّ شيء.. ولن تفهميني.. لقد بحثت عنكِ ووصلت إليكِ يا لولا لأعتذر منكِ وأتوسل إليكِ ألَّا تؤذي نفسك! ألا يكفيك هذا لكي تجاوبيني؟

- ولماذا تهتم لهذه الدرجة ألا أؤذي نفسي؟ أي خطة هذه؟ مَن أرسلك إليَّ؟

- لا أحد.. أرجوكِ صدقيني.

بدأت لولا تشعر بالخوف من زين، فابتعدت عنه وأسرعت الخطى باتجاه بيتها، ولكنه لحقها. وقفت أمام باب البناية قائلة:

- ماذا تريد؟

- لماذا تصل الطلبات لبيت هذا الرجل؟

لم ترد، فأمسكها من ذراعها؛ صرخت متألمة:

- اترك يدي.. اتركني!

- أخبريني وسأتركك.

- لن أخبرك.

ضغطَ زين على ذراعها بعنفٍ:

- لن أتركك إلا عندما تخبريني بهذا الأمر.

ولكي تتخلص لولا من هذا الشخص غريب الأطوار، اضطرت أن تخبره بالحقيقة:

- استأجرني لأفعل ذلك.

- ماذا تقولين؟ استأجرك؟

- نعم.

- كيف؟

- أخبرني أن هناك شخصًا يريد أن يستدرجه إلى البيت بهذه الطريقة.

- أي بيت!

- بيته. الذي تصل إليه طلبات الطعام.

- هذا الرجل المسن أراد أن يستدرجني أنا إلى هناك؟

قالت لولا بتحدٍ بعد أن نجحت في التخلص من يدِ زين:

- بالضبط.

- تعني أن كل هذا كان مخططًا له؟ مكالماتك اليومية، وطلبك للمطعم ذاته كل يوم، وطلبك أن تحدثيني أنا بالذات لتشتكي من سوء جودة الطعام؟

- ربما.

شعر زين بالحيرة الشديدة.. لا يعرف ما الذي يحدث ولا يفهم شيئًا، وعقرب الثواني يركض بسرعة مهولة، ومن خلفه عقرب الدقائق يحاول أن يلحق به، وكذلك الساعات تمضي أسرع من المعتاد.. وهو لا يعرف كيف يمكنه أن يحل كل شيء قبل مضي ثلاث ساعات من الآن.. ثلاث ساعات وسوف يتم الأربعين.. ثلاث ساعات وسوف يواجه البحر بأمواجه الغاضبة ليختفي إلى الأبد.. ولكن كيف سيتخلص من حياته وكل هذه الأسئلة في عقله لا أجوبة لها؟! مَن هذا الرجل المجهول؟ ولماذا فعلت لولا ذلك؟ لماذا يريده الرجل؟ هناك لغزٌ غيرُ مفهوم لم يحسب له حسابًا.. «جئت إلى هنا لأنقذ تائبة من أن تصير نسخة مصغرة من أمي، لأكتشف أن ثمة خطة تدَبَّر ضدي!»

قال زين وهو يشعر بيأس شديد:

- لولا.. أرجوكِ.. ليس أمامي سوى ثلاث ساعات من

الآن.. في البداية، جئت لأساعدك.. لم أستطع أن أكون سببًا في أذية أحدٍ قبل.. قبل أن أذهب.. ولكنني الآن بحاجة إلى مساعدتك.. لو سمحتِ.. لم آتِ لأضايقك.

شعرت لولا بالصدق في كلامه، وبدأت مخاوفها تهدأ عندما رأت سحابة شفافة من الدموع يحبسها زين بين جفنيه.. فلانت ملامحها وتناولت هاتفها من حقيبة يدها.. «ألو.. هل يمكنك أن تعيد مفتاح البيت إليَّ وتذهب الآن؟ لا لا.. حدث شيء طارئ.. مضطرة لتأجيل سهرتنا الليلة».

أنهت مكالمتها القصيرة ثم التفتت لزين قائلة بهدوء:

- تعالَ لنجلس في مقهى قريب ونتحدث.. سأخبرك بكل شيء..

***

كان المقهى الذي اختارته لولا صغيرًا، يحوي القليل من الكراسي الأنيقة، فلا يزدحم ولا يعلو فيه الصخب.. موسيقى هادئة أضفت على المكان لمسة شجن، ورائحة القهوة أنعشت قلب لولا التي لاحظت مدى ارتباك وتوتر هذا الزين الذي تراه لأول مرة. جلس زين على طرف الكرسي أمامها، وكأنه سيهب واقفًا في أي لحظة، أخذ ينقر بأصابعه على الطاولة وكأنه يردِّد إيقاعًا مزعجًا في عقله، بدا لها كأنه في عجلة من أمره، أو أن وحشًا ضاريًا يركض خلفه. وعندما جاء النادل بقائمة الطعام والمشروبات، تناولتها لولا بحركة تلقائية، ولكنها فوجئت عندما خطفها زين من يدها بسرعة:

- لولا.. ليس لدي وقت.

خرج صوتها يحمل قدرًا من الدهشة:

- ولكن.. يجب أن نطلب.

- اطلبي أي شيء.. ليس هناك وقتٌ للتفكير.

قالت مازحة:

- هل يركض أحدٌ خلفك؟

- نعم.. الوقت.

رفعت حاجبيها المرسومين بدقة:

- الوقت يركض خلفك؟

- ليس بالضبط.. كل ما يجب عليك معرفته، أنني أملك من وقتي ثلاث ساعات فقط.. بل ثلاثة إلا ربع الآن.

- وما الذي سيحدث بعد ثلاث ساعات؟

- لا يهم.. أخبريني بما عندك.

- حسنًا ولكن بشرط...

تأفَّف زين عندما عاد النادل مرة أخرى ليأخذ طلباتهم.. قالت لولا للنادل وعلى وجهها ابتسامة صافية استغرب منها زين:

- فنجانين قهوة سادة لو سمحت؛ فليس لدينا وقت.

نظر زين للولا، ولأول مرة ينتبه لملامحها الرقيقة. شعرت هي أيضًا وكأنه ينظر إليها للمرة الأولى. كان مستعجلًا طوال الوقت، لا تثبت عيناه في مكان واحد.. ينظر هنا وهناك بسرعة، ولكنه في هذه اللحظة بالذات، كان

قد بدأ ينتبه للولا.. لديها بشرة خمرية جذابة وشفتان ممتلئتان مرسومتان بريشة فنان، وأنف طويل ودقيق، وعينان واسعتان عسليتان بأهداب طويلة.. جسدها ممشوق أقرب للنحافة منه إلى البدانة، وشعرها أطول خصلة فيه كانت بالكاد تصل إلى ذقنها، ومن الخلف كان محلوقًا مثل الرجال.. بدت بعودها الفرنسي طفلة، وبالحلَق الفضي اللامع الذي أخذ موضعه في جنب أنفها الأيسر وكأنها تحاول التمرُّد على هذه الطفولة.

أخرجت علبة سجائر «ميريت» وتناولت واحدة.. التقطت ولاعة رخيصة من حقيبتها ثم أشعلت السيجارة بحركات معتادة تدل على شراهتها في التدخين.

- سيجارة؟

ردَّ زين وهو يتأمل ملامحها المتناقضة بين الطفولة والتمرد.. بين الأنوثة والبراءة:

- لا أدخن.

- ولا أنا! ولكن أحب أن أجرب وأقرر بنفسي.

ثم اعتدلت لولا في جلستها وهي تستعد لتسرد عليه القصة من البداية:

- مِن أين أبدأ؟

- من حيث شئت.

- كنت غاضبة.. وجدًّا، ولكنني تائبة كما أخبرتك في المكالمة إياها.

قاطعها زين:

- لولا أنا آسف لو جعلتك مضطرة لحكي أشياء تؤلمك. أنتِ غير مجبرة على التبرير. في النهاية أنا لا أعرفك وأنتِ لا تعرفينني ولستُ ولي أمرك. أنا فقط لا أريد أن أكون سببًا في أي أذى لغريب لا أعرفه قبل أن...

ولم يكمل كلامه، ولكنها وجدت نفسها تقول:

- أريد أن أحكي.. لم أختبر هذا الشعور من قبل.. شعور أن تحكي لأحد عن شيء يخصك.. اسمح لي أن أحكي..

- طبعًا.. تفضلي.

- كنت في حالة غضب عارم.. بل ما زلتُ.. ما زلتُ غاضبة. كنت ممنوعة من كل ملذات الحياة.. من اللعب ومن الأصدقاء ومن الفساتين الملونة. ممنوع أن أتواصل مع أحدٍ. ممنوع أن أحتفل بعيد ميلاد. كل شيء ممنوع وكل شيء حرام. حتى صدمني الواقع. اهتزت ثقتي في أكثر إنسانة كنت أثق بكونها ملاكًا منزَّلًا من السماء.. ملاكًا لا يخطئ أبدًا. عرفت أن أمي، تلك التي عذبتني بالكلام عن الشرف والأخلاق، مخطئة.. بل...

ارتبكت لولا وهي تتكلم ثم أردفت:

- كانت فقط تريد ألا أصبح مثلها، ألا تلوثني الدنيا مثلما لوثتها؛ لذلك انتقمت منها. غرقت في هذا الوحل القذر بنفسي كي أقهر قلبها، ولكنني لم أشعر بالراحة بعدها، ولن أرتاح أبدًا.

نظر زين في الساعة لتنتبه لولا وتقول:

- آه نسيت.. ليس لديك وقت. لن أدخل في تفاصيل كثيرة لا تهمك.

- لم أقصد ولكن...

- سأختصر.. المهم أنني كي أنتقم من أمي آذيت نفسي دون أن أشعر، وبهذه الطريقة تعرفت على الباشا.

- الباشا؟!

- الرجل الذي زُرته أنت اليوم. لا أحد يعرف اسمه بالتحديد.. نناديه بالباشا.

- هل هو قواد؟

أومأت برأسها قبل أن تجيب:

- نعم.. ويعمل في العقارات.

- قواد وعقارات؟ كيف؟

- أظن ليغطي على أعماله المشبوهة.

قرنَ حاجبيه بدهشة حقيقية:

- أليس كبيرًا في السن على هذه الأعمال؟ أقصد الدعارة؟

رفعت لولا كتفيها ثم مطت شفتيها قبل أن تقول:

- الباشا خبير في هذا المجال منذ شبابه وحتى يومنا هذا.. كنت أسمع من زميلاتي أنه أغنى من أغنى رجال الأعمال في البلد.

- ولكنه لا يعيش في قصر.

- كيلا يلفت الأنظار. يعيش في الظل مثل الخفافيش.

- حسنًا.. أكملي..

جاء النادل بفنجانين قهوة ووضعهما أمامهما، فابتسمت

لولا وهي تطفئ السيجارة وقالت بدهاء:

- هل نسيتَ أن هناك شرطًا حتى أخبرك بالحقيقة؟

- لولا...

- أعرف.. ليس لديك وقت. ولكن.. هذا شرطي الوحيد، وإلا لن أكمل حديثي.

- أمري لله.. ما هو؟

- بعد أن أخبرك بالحكاية، ستخبرني ما الذي سوف يحدث بعد ساعتين ونصف من الآن.

- ساعتين ونصف؟

- فاتت نصف ساعة.

ارتبك زين واعتدل في جلسته وأغمض عينيه ليأخذ شهيقًا عميقًا.. لاحظت لولا مدى فداحة الأمر فازداد إصرارُها على معرفة سر هذا الرجل.. شاب وسيم ذو عينين ساحرتين، وشعر كثيف.. طويل القامة وملابسه توحي بأن حالته المادية جيدة.. ما الذي يخيفه إلى هذه الدرجة، وما هذا الهم في عينيه؟ شيءٌ ما جذبها له من البداية.. منذ كانت تحدِّثه في الهاتف.. صوته؟ لا.. ولكن الإحساس الذي يحمله هذا الصوت.. ها هي تجلس أمامه وترى هذا الإحساس مجسَّدًا في نظرة عينيه.. إحساس بالخوف واستجداء الأمان.

- حسنًا.. موافق، ولكن أخبريني...

نظرت له لولا وهي تقدِّر مدى أهمية ما يخفيه، لدرجة أنْ يوافق على حكيه لغريبةٍ لمجرَّد أن يعرف الحكاية قبل

الموعد المحدد لوقوع السر.

- في البداية.. اتصل بي الباشا، وأخبرني أنه يريدني في مهمة.. اعتقدت أنها من المهام إيَّاها فرفضت وتمسكت بتوبتي.. قال لي إن الموضوع ليس مثلما أعتقد، وأن كلَّ ما في الأمر أنه يريدني أن أطلب الطعام كلَّ يومٍ من مطعم معين، وفي المقابل سوف يعطيني نفس المبلغ الذي كنت آخذه في الليلة! استغربت جدًّا! واستفسرت أكثر.. فطلب أن يقابلني على وجه السرعة.. الباشا ليس لديه عنوان مُحدَّد، لا أعرف إذا كانت شقة الشاطبي مِلكه أم أنه استأجرها لفترة.. ولكنه أعطاني عنوانها على أي حالٍ.. كنت أزوره قبل ذلك في أماكن متعددة، وكنت ألاحظ أن جميع الشقق التي أزورها خالية من المتعلقات الشخصية.. أنت تعرف بالطبع أنك عندما تدخل إلى أحد البيوت، ستجد مثلًا ساعة هنا، وعلبة مناديل هناك.. ستجد في المطبخ صحنًا متسخًا، أو عدة القهوة والشاي والسُّكَّر.. ستفتح الثلاجة وتجد زجاجة حليب وعلبة جبن وصحن به أكل بائت.

ولكن عندما كنت أزوره، ألاحظ أن شقته خالية من كل المتعلقات وكأن لا أحد يسكنها.. فكنت أستنتج أنها شقة مؤقتة، وأنها ليست ملكه، أو أنه حريص زيادة كي لا يترك أثرًا له في أي مكان.. ما أعرفه عن هذا الرجل، أنه عملَ كقواد في شبابه، وكان هائمًا بحب النساء والكِيف والمزاج، حتى وقع في حب إحدى عاهراته.. لعلَّها ماتت أو تركته، لا أحد يعرف القصة بالضبط، ولكن المؤكد أنه زهدَ النساء من بعدها، ولم يمس امرأة بعدها قَطّ.

حتى إنني عندما عرَّفَتني عليه صديقتي، وهي تعمل تحت طوعه منذ خمس سنوات، أخبرتها أنني خائفة منه فطمأنتني.. قالت إن الباشا لا يلمس النساء اللاتي يعملن عنده، لدرجة أنه لا يسلم عليهن باليد! استغربت جدًّا.. كنت أظنه همجيًّا ومغتصبًا، وعندما يراني سوف يتحرش بي على الأقل، فأنا لا أقدم على وظيفة محاسبة في بنك على أي حالٍ، بل عاهرة! فما الذي أنتظره من الباشا صاحب العمل غير ذلك؟ أهبت نفسي على كل الاحتمالات، وأقنعتها أنني مستعدة لكل شيء، كانت مشاعري الانتقامية تحرِّكني بدرجة كبيرة ولم أعرف طبعًا غير متأخرًا أن كل هذا الغضب سيتحول مع الوقت إلى أكوام كبيرة من حالات الهياج والاكتئاب وفقدان الأمل.. وقتها روضت عقلي أن أتقبَّل حياتي الجديدة.. على الأقل سأكسب مالًا وفيرًا، وسأتعرف على بشر لأول مرة في حياتي بعد خروجي عن طوع أمي وتحكماتها.. ظننت أنني سأجد الونس الذي لطالما افتقدته...

قاطعها زين:

- أين أبوكِ؟

تناولت لولا سيجارة أخرى بعصبية وحاولت أن تشعلها، إلا أن الولاعة سقطت تحت كرسيها.. قام زين بسرعة ليجلس على ركبتيه ويلتقط الولاعة ويناولها إياها، غير أن عيونهما تلاقت.. لم يحسب لذلك حسابًا. هناك نظرات عابرة، تحدث طوال الوقت بين الناس وبعضهم، ولكن تجيء لحظة، تنفذ فيها النظرةُ إلى الروح، وتبوح بأسرار مبهمة عن صاحبها.. هذا ما حدثَ عندما تلاقت

عيونهما.. كان في عيني لولا نظرة استجداء، واحتياج.. شعر زين أن هاتين العينين تخاطبان روحه، وأن هناك سرًّا خفيًّا خلفهما، وأن تلك الفتاة الجالسة أمامه، ليست سوى طفلة بريئة تتخفى في ثوب الخطيئة. تسارعت دقات قلبيهما. لولا أيضًا شعرت بشيء ما، إحساس أربكها، وعينا زين وكأنهما كشفتا عن روحها وقلبها.

دقات قلب عنيفة.. دقات محسوسة جدًّا، يكادان يسمعانها وسط صخب المقهى وأبواق السيارات وصراخ الأطفال وزعيق الباعة الجائلين.

استفاق زين من ارتباكه وعاد إلى مكانه.. أشعلت لولا السيجارة بارتباك ملحوظ، وحاولت أن تكمل حديثها بشكل طبيعي. فوجئت. بنفسها تقول:

- أنا يتيمة.

- آسف.

- لا يهم.

- ليس لديكِ أصدقاء إذًا؟ وحزينة؟ ستندمين عندما تتعاملين مع البشر صدقيني.

ضحكت لولا ضحكة طفولية، لا تليق أبدًا مع الصورة القديمة الذي رسمها لها في خياله.

- هل تعرفين أن ضحكتك جميلة؟

قالت مشاغبة:

- كنت أظن أن ليس لديك وقت لمعاكسة البنات.

- لا أعاكس أحدًا.. إنها معلومة عابرة.. ولكنها في غاية

الأهمية حتى أضيع دقيقة من عمري لأخبرك بها.

- لهذه الدرجة؟

- أكملي.. ماذا حدث بعد ذلك؟

أخذت لولا نفسًا عميقًا محمَّلًا بالنيكوتين، ثم زفرت دخانًا رماديًا كثيفًا، وأردفت:

- أنت تعرف ما تبقى من حكايتي، أخبرتك في الهاتف.. كنت كل ليلة مع شخص. كنت أعرف أن كل امرأة تعمل لدى الباشا تريد المال، وهذا ما يجبرها على الذل والمهانة.. أما أنا، وبغضّ النظر عن مشاعري الانتقامية تجاه أمي، كنت أبحث عن صديق! تخيل؟ أبحث عن ونس! بالطبع كنت أبحث في المكان الخطأ. أعي ذلك جيدًا الآن. ولكن ألا تفعل أشياء خاطئة أحيانًا وتعرف أنك لن تصل لشيء ومع ذلك تفعلها؟ وكأن قوةً أكبر منك تحركك دون إرادة منك! هذا ما شعرت به. المهم.. سأدخل في الموضوع.. توطدت علاقتي بالباشا، صدق أو لا تصدق، كنت أعتبره أبي! رجل لم يمسني قَطّ، ويجلب لي العمل والمال.. عندما أمرض كان يتصل ليطمئن على صحتي. رجل غريب.. مهيب.. وحزين. العامل المشترك بيني وبينه كان الوحدة القاتلة.. رغم كل الفتيات اللاتي يعملن لديه، إلا أنه وحيد بدرجة مخيفة.. لم أجده قَطّ في خلال الخمس سنوات التي عملت معه فيها، بصحبة إحداهن! لم أسمع أن لديه صديقًا.. لا أعرف ماذا يفعل وكيف يقضي وقته وحيدًا وبين أربعة جدران، والأكثر إيلامًا أنه لا يملك أربعة جدران محدَّدين.. ليس له بيت، ولا وطن، ولا صحبة..

كنت أنظر إليه بهذه العين، على عكس زميلاتي اللائي كن ينظرن إليه بعين وليّ النعمة السافر والظالم، الذي يعطيهن ملاليم من ملاييينه.. بعد ذلك، عندما أخبرته أنني تائبة، وأنني لن أعمل مرة أخرى، حزن حزنًا شديدًا، وأصابه الإعياء..

طلب مني أن أزوره لأودعه وكذلك فعلت.. عندما زرته كان محني الظهر لا يستطيع أن يصلب طوله، ويسعل بطريقة مخيفة.. كان هذا منذ شهر واحد..

أخبرني أنه حزين لأنني أتركه، وأنه مريض ويشعر أنه سوف يموت..

ترددت أن أحضنه كيلا يغضب مني.. لا يحب أن يلمس امرأة قَطّ.. ولكن شعرت وكأن نظرته تناديني.. رأيت ليلتها حزنًا غريبًا في عينيه.. حزنًا بحجم بحر الإسكندرية! استأذنته أن أحضنه فوافق! هل تعرف ماذا حدث؟

- ماذا؟

- بكى! وأنا ارتبكت.. كيف يبكي الباشا؟ الباشا بنفسه! ولماذا؟

لم يجِبني بالطبع، ولم أعرف وقتها لماذا بكى. لم أصدق أن ذهابي أثَّر فيه لهذه الدرجة، ولكن كان هناك سِرٌّ ما يشغل باله. سر لن يبوح به لي بالطبع.. ذهبت وأنا أنوي عدم الرجوع مرة أخرى إلى هذا العمل المشين المتعب، فظهري أوجعني من ثقل الحمل، وقلبي من الهم انفطر.. لا تستغرب ولكنني ألوم نفسي كثيرًا، وأحاسبها بقسوة.

لقد عاقبت نفسي أشدَّ عقاب.. هذه طبيعتي، عندما أخطئ أتعب، وأجلد ذاتي.

حرمت نفسي من الطعام، ومن التنزه خارج البيت.. والباشا احترم موقفي وتركني أذهب.. غير أنه اتصل بي ذات ليلة.. توقعت أنه سيدعوني لأعمل معه من جديد.. ولكنه أخبرني بهذا العرض الغريب.. أن أطلب المطعم كلَّ يوم!

وطلبَ مني أن أزوره، وأعطاني عنوان الشقة التي زرتها أنت..

وصلت إلى العنوان، وعندما فتح الباب ضمني إلى صدره كأب يشتاق إلى ابنته الحبيبة!

دخلت البيت لأجد الكثير من المتعلقات الشخصية التي لا تنتهي!

كل شبر في الشقة له قِصَّة، وينضح بالحياة. وهذا ما أثار استعجابي، وجعلني أعتقد أن هذه الشقة بالذات، هي شقة الباشا الحقيقية.. وجدت مثلًا في طريقي إلى الصالون، خزانة كبيرة ممتلئة عن آخرها بأحذية قديمة مغطاة بالتراب، وفي الصالون الفخم، وجدت تحت أحد الكراسي نعلًا قديمًا، وعندما طلب مني أن أجلب له كأس مياه من المطبخ، وجدته ممتلئًا عن آخره بالأطباق والأكواب الزجاجية ذات الطراز القديم.. ووجدت من تلك الأواني التي كانوا يستخدمونها في الطبخ قبل عشرين عامًا من الآن، ولم تعد تباع مثل هذه الأواني في الأسواق الآن.

كل تفاصيل البيت كانت تعود لزمن قديم، وتحكي حكاية.. مما جعلني أشعر بالارتياح والدفء للمرة الأولى في بيتٍ من بيوت الباشا..

وعندما جلسنا لنتحدث أخبرني أنه يريدني في موضوع في غاية الأهمية. أخبرني أن عليَّ أن أتصل بمطعم ما.. كل يومٍ، ومن هاتفه، ومن هذه الشقة بالذات.. وعندما يصل الطعام، أخبرَني أن أتصل بخدمة العملاء، وأن أشكو من سوء جودة الطعام، وأخبرهم أنه جاء باردًا، وأن أطالب بتعويض.. أخبرني أن سياسة شركة خدمة العملاء توجب عليهم إرضاء العميل وإن كذب، وأنهم سيعرضون عليَّ وجبةً مجانية أخرى، أو استرداد ثمن الوجبة. أذكر كلامه وقتها عندما قال بحزم: «ارفضي كل الحلول، واطلبي التحدُّث إلى المشرف».

قال زين مستنتجًا بلهجة ساخرة:

- والمشرف اسمه زين الدين الحسيني.

- بالضبط.

- والسبب؟

ارتسمت الدهشة على ملامحها حين أجابت:

- سألته عن السبب، فأخبرني أن هذا ليس من شأني، وأنني لو فعلت ما أمرني به، سيعطيني كلَّ ليلة المبلغ الذي كنت أكسبه من الحرام، وأن أعتبر هذه وظيفتي الجديدة.. وافقت طبعًا.. كنت بحاجة شديدة إلى المال لأدفع إيجار البيت الذي أسكن فيه، وإلا وجدت نفسي في الشارع بعد عدة أشهر.. فرصة ذهبية جاءت تحت قدمي،

عملٌ سهلٌ وغير مشبوه وغير متعب، فلماذا سأرفض؟ وبدأت أنفذ الخطة. فعلت كل ما أمرني به.. أسبوع، أسبوعان.. ثم قتلني الفضول.. أردت أن أعرف لماذا أتصل بك كلَّ يومٍ؟ ما الهدف؟ انتهزت فرصة أن الباشا كان رائق المزاج في إحدى الليالي، فسألته مستجدية بنعومة.

قال زين متحمسًا لمعرفة الإجابة:

- هاه.. ماذا قال؟

- لا شيء كالعادة.. أخبرني فقط أنه يريد لهذا الشاب المدعو زين أن يبحث عن عنوانه هذا، عن طريق رقم الهاتف أو أحد طيارين المطعم.. فلما سألته لماذا، امتنع عن الإجابة.

- ثم؟

- ثم حدثتك في المرة الأخيرة، عندما جعلتني أفقد أعصابي.. حدثتني بطريقة سيئة وواجهتني بكل عيوبي.. لم أغضب منك، ولكن غضبت أن كل كلمة قلتها عني كانت صحيحة.. أنت يا زين واجهتني بما كنت أهرب منه طوال شهر فائت.. ففقدت أعصابي ونسيت نفسي وحدثتك بطريقة.. بطريقة لم أتفق عليها مع الباشا.. كان بجواري ويسمع كل شيء.. رأيت نظرات الغضب في عينيه، وكنت أعرف أن غضبه صعب. ولكنني لم أخَفْ، وقلت لك كل ما أريد أن أقوله ومن كل قلبي.

- أي أن المكالمة الأخيرة ليست تبع الخطة؟

- بالضبط.. وبعد ذلك انهرتُ تمامًا.. أغلقت الهاتف

وركضت نحو الباب.. سمعت الباشا يسبُّ ويلعن ويناديني، قوته لا تعينه على الركض خلفي.. كنت أبكي وكل همي أن أعود إلى بيتي لأبكي وأصرخ بحرية أكبر.. فكرت أن أؤذي نفسي وأن أعود عن توبتي لأنني في كل الأحوال لا أحظى بالاحترام أو التقدير من أحد. فتاة مثلي يا زين تفقد احترام من حولها إلى الأبد، مهما تابت ومهما فعلت.

انفلتت دمعة متمردة من عين لولا، فمسحتها بسرعة خوفًا أن يلاحظها، ولكن زين المحدق بتركيز في ملامحها وهي تسرد كل ما حدث، لم يَفُته هروب تلك الدمعة الشاردة، وارتباك صاحبتها.. تصنع أنه لم ينتبه:

- أكملي...

تنهدت بعمق ثم أكملت:

- ولم أعد بعد ذلك لأتصل بشركتكم مرة أخرى.. وبهذا يكون اتفاقي قد انتهى مع الباشا بالطبع. أفكر في تغيير عنواني كيلا يعثر عليَّ، ولكن هذا سيكلفني الكثير من المال، ولم أحسب لذلك حسابًا.. أما الآن فأنا أشعر أن كل الطرق تدفعني إلى الرجوع لعملي من جديد. على كل حال سيجدني الباشا وسيعاقبني أشد عقاب لأني خالفت أوامره.. لعله سيرسل أحد رجاله ليحملني إليه حملًا. إنني أنتظر قدوم أحدهم في أي لحظة.

- معقول هذا؟ ولكن ما الذي أراده منِّي؟ لم يحدثني عن أي شيء ولم يخبرني بشيء ذي قيمة! شعرت أنه رجل غريب وسألته عنكِ.. أخبرني أنك هربت وأعطاني

عنوانك! لذلك جئت إليك، وكنت مع هذا الشاب ذي الخواتم في يده.. لم أفهم ما الذي أراده مني بالتحديد!

قالت لولا في حيرة من أمرها:

- لا أعرف.. صدقني.. هذا كل ما أعرفه.

- أصدقك.. ولكن.. لا أفهم شيئًا. ستساعدينني؟ لم يتبقَّ لي كثير من الوقت.

قالت لولا وعلى وجهها الابتسامة المشاغبة ذاتها:

- إذا لم يخطفني رجال الباشا، سأساعدك.

- لن يتعرض لكِ أحدٌ بالأذى، على الأقل وأنا موجود.

طلب زين الحساب من النادل استعدادًا للنهوض، ولكن لولا ذكَّرته:

- لن تقوم من هنا قبل أن تفي بوعدك.

- أي وعد؟

- ستخبرني ما الذي سيحدث بعد ساعتين من الآن.

***

# - الساعة العاشرة -

دفع زين الحساب على عجلٍ دون أن يأخذ الباقي، وهرع إلى باب المقهى، ومن خلفه هرولت لولا قائلة:

- زين.. انتظر.

وقف زين في منتصف الشارع الجانبي أمام المقهى يصارع الزمن:

- لولا.. أنا آسف.. لا يوجد وقت لأحكي. كنت صادقًا معكِ عندما أخبرتكِ بنيَّتي في الحكي، ولكن لا وقت لدي.. يجب أن أذهب حالًا.

- إلى أين؟

- مشوار مهم.

لمعت عيناها حين قالت:

- سآتي معك.

- نعم؟

قالت لولا بتصميم:

- لن أسمح لكَ أن تخلف بوعدك. كان شَرطي لأعترف لكَ بالحقيقة أن تخبرني ما الذي سيحدث بعد ساعتين. وإذا لم يكن لديك الوقت الكافي، سأرافقك وتحكي لي في الطريق. ومن ثم نفترق. وبهذا تكون وفيت بالشرط..

بإصرارٍ قال زين:

- لولا.. لا يمكن لأن...

قاطعته:

- لا وقت لديك. هيَّا.. ستتأخر. إلى أين سنذهب؟

- مصممة؟

- بشدة.

- عنيدة!

- جدًّا.

- ستدفعين ثمن هذا العند.. سترين ما يؤلمك.

- لا تقلق عليَّ؛ أنا مستعدة.

- فلنذهب إذًا..

- إلى أين؟

صمت زين للحظة قبل أن يجيبها:

- إلى شقة الباشا.

انطلقت سيارة زين بأقصى سرعة متفادية السيارات البطيئة في الطريق، ومخترقة كل قوانين المرور، لدرجة أخافت لولا:

- حاسب يا زين.. هدِّئ السرعة لو سمحت.

قال مهاجمًا:

- ممَّ تخافين؟ هه؟

- سنموت يا بني آدم.

- ولم تحرصين على الحياة؟

نظرت لولا لهذا الشاب المندفع. احتارت إذا كان اندفاعه ناتجًا عن جرأة محمودة أم استهتار مؤذٍ؟ وجدته ينظر للطريق بحدة وكأنه يسبُّ الشوارع، ويتفادى السيارات

وكأنهما في لعبة محاكاة، ويقود بسرعة جنونية كرجل باع حياته للشيطان، ويعتريه القلق كمجرم يهرب من ملاحقة الشرطة.. قالت بحذرٍ:

- لأني لا أريد أن أموت.

- لماذا؟

- لماذا!

ردَّدَت سؤاله مستنكرة.

- ألم تخبريني منذ قليل أن حياتك بائسة؟ وأنكِ مضطرة للعمل كـ...

لم يكمل عبارته بعدما شعر بالذنب، وشردت لولا ببصرها عبر النافذة لوهلة ثم قالت والدموع تترقرق في عينيها:

- كمومس.. قلها.

- آسف ولكن نعم! ألم تخبريني أن التوبة صعبة؟ وأنكِ بحاجة للمال لدفع الإيجار؟ وأن أمك غاضبة عليك وأنتِ أيضًا غاضبة منها؟ وأنك هاربة من الباشا الذي سيعاقبك أشد عقاب لأنك خالفت قوانينه؟ هه؟ أي حياة تلك التي تحرصين أن تعيشيها وتخافين الموت بهذا الشكل؟

- أنت أيضًا تخاف من الموت.

ضحكَ زين ضحكة هستيرية واحمرت عيناه، كان قد وصل إلى العنوان المطلوب فشدَّ المكابح فجأةً حتى اندفع جسد لولا إلى الأمام إثر الحركة غير المحسوبة.. فصرخت بعصبية:

- مجنون.

نظر زين للولا نظرة طويلة، توترها وخوفها أجبراه على استجماع نفسه.. أغمض عينيه وأخذ شهيقًا عميقًا فزفيرًا:

- أنا آسف.

قالها بصدق نفذ لقلبها بدون مجهود:

- لماذا ضحكتَ كالمجانين هكذا؟

- لأنك لا تعرفين شيئًا.. ليس ذنبكِ، فأنتِ لا تعرفين عني أيَّ شيء.

- أخبرني ما الذي أضحكك بالتحديد؟

- تظنين أني أخاف الموت.

- ومَن منَّا لا يخاف أن يموت؟

- أنا.

- بلى.. تخاف. رد فعلك عندما تجيء سيرة الموت، غير طبيعي.. بل هيستيري. أنت تخاف أكثر منِّي.

دخلت كلماتها إلى أذنه كصوت برق مؤلم ومزعج، وفي قلبه أحدثَتْ شرخًا.. ولكنه استدرك نفسه وقال وهو يقرِّب وجهه من وجهها بتحدٍّ:

- أتعرفين ما الذي يخيفني أكثر من الموت؟

لم تُجِبه وأخذت تتأمل ملامحه، بينما استطرد هو على الفور:

- الجنون.. أن أفقد عقلي.

ارتبكت لولا وهي تنظر بداخل عينيه العميقتين المليئتين

بالعروق الحمراء النافرة، والمياه المالحة المحبوسة بقوة ما بداخلهما:

- أنت مجنون بالفعل.

ثم فتحت الباب وترجلت من السيارة.. وكذلك فعل زين.

- ها ها.. سترين الفرق بين جنوني الآن، وجنوني بعد ساعتين.. وقتها ستعرفين أن هذه هي أكثر لحظات حياتي تعقلًا.

رغم ذلك، وأثناء سيرها بجواره كقطة صغيرة مشاغبة.. كأنثى متمردة لا تُشبه الصورة المعتادة للنساء.. بشعرها الحليق، وجسدها النحيل وأذنها المرصعة بحلقات متفاوتة الأحجام من الأقراط الفضية، لم يستطع زين أن يمنع عقله من التفكير في سيناريوهات غريبة بديلة عن السيناريو الذي يحدث الآن.. «ماذا لو قابلتكِ في وقتٍ آخر وظروف أخرى؟ هل كنت سأحبك وقتها؟ أم أن قلبي لم يعد صالحًا للحب؟ ماذا لو كنتِ موظفة في الشركة، بدلًا من «حياة» التي أجبرتني الظروف أن أراها يوميًّا.. وأرى خاتم رجل آخر في يدها.. حياة؟ لقد نسيتُ أن أقابلها!! أين الهاتف؟ في جيبي.. تأخرت عليها.. سأقابلها بعد أن أعرف من هو هذا الباشا ولماذا يسعى خلفي.. لا ضير إن انتظرتني قليلًا بعد.. أما أنتِ يا لولا.. مِن أين خرجتِ في طريقي؟ وما هذا السحر في عينيكِ وأهدابكِ؟ كيف لهذه البراءة والسذاجة والتصرفات التلقائية العادية أن يصيروا صفاتٍ لمومس؟ تبحثين عن الونس؟ أيُّ ونس وسط ذكور لا يفقهون معنى الرجولة ولا الحب.. آه وأنا أيضًا.. أنا أيضًا غير صالح للحب. لم تمهلني الدنيا ولم تعطني فرصة أن

أحب بدون خوفٍ من الغد.. لن أحبك يا لولا وإن كنتِ أشرف وأنبل وأجمل النساء في هذا العالم.. فأنا سائر نحو حتفي لا محالة...»

انتبه إلى صوت لولا:

- زين! أطرِق الباب لقد وصلنا.. فيمَ تفكر؟

- نعم؟ لا شيء.

انتفض جسدها بشكل ملحوظ حين قالت:

- أنا خائفة.. الباشا سيعاقبني.

- لا تخافي.. هو أراد أن يصل إليَّ، وها أنت تقدمين له ما أراد. اتركي الأمر عليَّ واطمئني.

«اطمئني» كلمة أثلجت صدر لولا عندما شعرت بها.. «اطمئني».. فكرت في الكلمة.. فكرت أنها لم تسمعها من قبل.. لم يقل لها أحد «اطمئني»! وبالذات بهذا الصدق.. وجدت نفسها تستشعر جمال هذا الإحساس وتتعجب منه.. تتذوق الإحساس بالكلمة كمن يتذوق حلوى لذيذة لأول مرة!

طرق زين الباب وانتظر.. ألقى نظرة خاطفة على لولا التي تحملق في الباب بنظرة طفولية جميلة.. رآها كحُلمٍ ضائعٍ مثل كل الأحلام الضائعة التي لن تَحدُث، وخطرت في باله فكرة غريبة «ماذا لو صرنا أصدقاء الساعات المتبقية من وقتي؟ أليست الصداقة أبقى؟ ألم تبحثي عن صديق؟ لعلِّي أستطيع أن أحقق أمنيتك ولو لساعة؛ لأترك أثرًا طيبًا في قلبك قبل أن أرحل...» قاطع تفكيره صرير الباب وهو ينفتح ويكشف عن وجه الرجل غريب الأطوار.

فتح الباشا الباب عن آخره وهو يبتسم، وكعادته أعطاهما ظهره في صمت واتجه إلى ركن الشاي الذي يقع تحت النافذة مباشرة، وجلس على كرسيه.. بينما تبادل زين ولولا النظرات، ثم تبعاه.

وقفا أمام الكرسي الوحيد المقابل لكرسي الباشا..

- سأترككما وحدكما..

قالتها لولا وهي تهم بالانصراف فأمسك زين يدها ليستبقيها، حتى إنه تفاجأ بفعلته تلك، ولكنه قال:

- ألم تصممي أن تعرفي كل شيء؟ اسمعي إذًا...

استجابت لولا وبقيت بجواره.. لم تكن تفكر في سِرّ هذا الشاب مع الباشا، ولكن في هذا الإحساس الجديد بالاستبقاء! وبكل الأحاسيس الجديدة التي تختبرها لأول مرة ويكون زين هو سببها، وفي وقت معرفتها القصير به والذي لا يتعدى سوى بضع ساعات! وكانت تفكر في تفكيرها نفسه في هذه الأمور، في هذا الوقت العصيب من حياة شاب يحمل سرًا كبيرًا لا تعرف عنه شيئًا.. ولكن الحديث الذي دارَ بين زين والباشا شتَّت تفكيرها عن هذه الأفكار الغريبة التي ترعد وتعصف في عقلها.

- اجلس.

أمره الباشا.

قال زين بعناد:

- لن أجلس.. أنا مرتاح هكذا.

ولاحظ زين أن الباشا يحدق في ملامحه بطريقة غريبة،

تمامًا كما كان يفعل في المرة السابقة.. مما جعله يرتبك ويتشوش فكره:

- ماذا تريد مني؟

لم يردّ الباشا واستمر في تحديقه السخيف. أردف زين بلهجة واثقة:

- لقد عرفت كل شيء.

- كل شيء؟

قالها الباشا ساخرًا.

- نعم.. أخبرتني لولا.

ضحك الباشا ساخرًا مرة أخرى مما أثار حفيظة زين:

- لولا لا تعرف شيئًا لتخبرك به.

- أخبرني أنت.. لماذا استدرجتني إلى هنا؟ ما الذي تعرفه عني؟

- كل شيء.

- مَن أنت؟

قال بتعالٍ كأنه إله:

- أنا الباشا.

سحبَ زين الكرسي وجلس وفي عينيه نظرة تحدي منَ لا يهاب أحدًا، ولا يخاف من شيء.. مطَّ رقبته للأمام وهو يقول باستهزاء متحديًا تكبُّر الباشا:

- وماذا يريد الباشا مني؟

قام الباشا عن كرسيه، وألقى نظرةً على لولا الواقفة

بجوار زين وكأنها المحامي الخاص به، أو الملاك الحارس الذي يحميه.. فضحك بسخرية، متجاهلًا سؤال زين، وموجهًا لها الحديث:

- تختارين دائمًا الطريق الخطأ يا لولا.

قالت دون أن تفهم قصده:

- أيُّ طريق؟!

تجاهل حديثها واقترب من زين في خطوات بطيئة، حتى وقف أمامه مباشرة.. حدق في عينيه، في ذقنه الخشنة النابتة، وفي تفاحة آدم النافرة من رقبته.. قال بصوتٍ أجش وكأنه قادم من عمق زجاجة فارغة:

- كنت أتمنى أن أخبرك ماذا أريد منكَ بالتحديد، ولكنني لا أستطيع أن أخبرك بشيء قبل يومين من الآن.

قال زين متوترًا:

- يومين؟

- بالضبط.. تعالَ بعد يومين، وستجد إجابة شافية ووافية. أعدك بذلك.

قام زين عن كرسيه غاضبًا، ولا يعرف ماذا يجب عليه أن يفعل.

- يومان كثير! ليس لدي سوى ساعتين.. أخبرني الآن!

نظر الباشا للشاب باستغراب بينما تدخلت لولا في محاولة بائسة منها لتهدئته:

- وما المشكلة يا زين؟ اهدأ.. سنذهب إلى مشوارك بعد ساعتين، وبعد ذلك سنزور الباشا بعد يومين.

نظر لها عاجزًا عن الرد.. كيف سيخبرها أنه لن يكون موجودًا في هذه الدنيا كلها من الأساس بعد ساعتين؟

- لولا.. ليس لدي وقت.

- أنت مسافر؟

لم يرد.. صبَّ كل تفكيره على استخراج الإجابة من فم هذا الباشا بأي شكل من الأشكال.. «لن أنتظر يومين بأي حالٍ من الأحوال.. مستحيل.. لو أجلت انتحاري لبَعد يومين، سأظلُّ أؤجله أسبوعًا، أسبوعين.. شهرًا.. سنتين.. حتى يجيء المعاد وأفقد عقلي، وأصير عبئًا على أمي، وعمتي، وزملائي.. سأصير أضحوكة المقهى، وسيتكلمون عني مثلما تكلموا عن بابا الله يرحمه، وجدي.. لا، لن أؤجل شيئًا.. مستحيل».

- اسمع يا باشا.. للأسف أنا مسافر بعد ساعتين، ولن أعود قبل عدة أعوام.. وسأفقد التواصل بالبلد ومن فيها.. لذلك، من الأفضل أن تخبرني الآن.

خفق قلب لولا بعد أن سمعت هذا الكلام.. كل المشاعر الجديدة والحلوة التي شعرت بها مع هذا الشاب الغريب، ستنتهي قبل أن تبدأ.. لا تعرف لماذا شعرت بحزن مفاجئ وغريب لأنه سيسافر.. شكت في البداية أنها معجبة به، ولكنها تعرف نفسها جيدًا، كل ما يهمها هو أن تجد شخصًا تثق به، تستطيع أن تحكي له عن مشاعرها ومشاكلها.. كل ما يهمها أن تجد صديقًا حقيقيًّا. كانت تفكر أنها لو أعجبت به حقًّا، وكانت تريد أن تفتح له باب قلبها لما حكت له عن ماضيها غير

المشرِّف بكل بساطة.. كانت ستحاول أن تتجمل على الأقل.. كانت ستزين الحقيقة، وتخفي نصفها. ولكن الأصدقاء لا يتجملون، ولا يزينون الحقائق.. الأصدقاء يبوحون بكل ما يشعرون به بصدق تام.. عرفت في صميم قلبها أن زين هو الصديق الذي لطالما بحثت عنه.

قال الباشا وهو ينظر من النافذة إلى الشارع الجانبي الفارغ تقريبًا من الناس، واقفًا محني الظهر، وشابكًا يديه خلف ظهره.

- صدقني يا زين.. لو أملك الإجابة الحاسمة لأخبرتك الآن.

قال زين رافعًا صوته:

- أيُّ منطق هذا؟ تستأجر لولا لتحدثني يوميًّا في الهاتف حتى تستدرجني إلى هنا، ولمدة شهرٍ كاملٍ، وعندما آتي بالفعل تخبرني أنك لا تعرف الإجابة؟ لا تعرف لماذا جعلتها تحدثني لمدة شهر في الهاتف؟ لا تعرف لماذا ناديتني إلى هنا؟ هل أنت مخبول؟

انفجعت لولا من طريقة كلام زين للباشا.. خافت أن يعاقبه أو يؤذيه. قرصت يده وهي تنظر إليه باستنكار وترفع حاجبيها:

- زين توقف! عن إذنك يا باشا، سنأتي بعد يومين كما أمرت.

سحب زين يده بعصبية شديدة وقال بحدة:

- لن آتي.. قلت لكِ مسافر.. ألا تفهمين؟

انصدمت لولا من عصبيته وشعرت بالإهانة.. استدركت

أنه غريبٌ عنها، وأنه جاء لهدفٍ، وأن أحلام الصداقة التي جالت بخاطرها منذ قليل، وحزنها أنه مسافر ليسا سوى شعورٍ مُراهق وتافهٍ اعتراها؛ فاستحقرت نفسها..

قالت متداركة ما حدث:

- آسفة.. افعل ما شئت. سأنتظرك بجوار السيارة. سأودعك، وأذهب.

ثم خرجت من الشقة وقلبها يرتجف من البرد.

- لن تخبرني ماذا تريد؟

- بعد يومين.

وقف زين أمام الرجل الذي يقصره ببضعة سنتيمترات، محني العود وكأنه يحمل أثقالًا فوق ظهره، وقد غزا الشيب رأسه، والتجاعيد احتلت ثلثي مساحة وجهه.

- تعرف؟ لا تخبرني بشيء.

قرَّب زين وجهه من الرجل حتى كادا أنفيهما أن يحتكا ببعضهما البعض.

- طظ يا باشا.. لا أريد أن أعرف، ولن آتي بعد يومين. تعرف لماذا؟

حدق الباشا في عيني زين وقطب حاجبيه متسائلًا عن هوية هذا الشاب الغاضب. هل زين هو الشخص الذي يبحث عنه فعلًا؟ أم أن شكوكه محض هراء؟ سأل بفضول يحاول أن يخفيه خلف ملامحه الصارمة:

- لماذا؟

- لأني سأكون ميتًا.

ولم يعطِ الرجل فرصة للتعقيب.. هَمَّ أن يستدير ليخرج من شقة الباشا تاركًا هذا اللغز خلف ظهره، إلا أنه وبمحض الصدفة لمحَ معصم يده اليسرى. ارتبكَ قليلًا قبل أن يدقق النظر. لاحظ الباشا أنه ينظر ليده بريبة. ضيَّق زين عينيه وأخذ ينظر إلى ذلك الوشم باهت اللون الذي ارتسم على معصم الباشا.. وجده عبارة عن عين واسعة غريبة منقسمة لنصفين، ومن بينهما خط يُشبه علامة البرق. أخذت دقات قلب زين تتسارع. يشعر بإحساس غريب وغير مريح، وكأنه رأى هذا الوشم من قبل! وكأن هذا الوشم له ذكرى مربكة وسيئة لكي يشعر عندما يراه بهذا الانقباض في صدره.

«لا يمكن.. مستحيل..» فكر زين بصوت عالٍ، تساءل والشك يملأ قلبه عندما تذكَّر متى رأى هذا الوشم من قبل. وكان القوَّاد المسن ينظر إليه بنظرات الشك ذاتها.. قال زين متعجبًا وخائفًا:

- مَن أنت؟

- مَن أنا؟!

تعجب الباشا من السؤال، بينما فكر زين قليلًا وقد بدأ يظهر معنى لكل ما حدث.

- هل تعرف امرأة تدعى صالحة؟

ارتبك العجوز وسأله بحذَر:

- صالحة؟

- نعم صالحة.. تذكرها؟

قال الباشا:

- وهل نسيتها قَطّ؟

غلي الدم في عروق زين.. «إنه يعترف! لا ينكر حتى!» وكل ما جاء في باله أن يقتل هذا الرجل، ففي كل الأحوال لن يعاقب على فعلته.. سوف ينتحر بعد ساعة ونصف من الآن أو أقل.

حاول أن يكتم غيظه وغضبه المهول حتى يتأكد.. حتى يعرف ما لم يعرفه طوال عمره.

- إذًا أنت تعترف أنك قوادها..

- ولماذا أخفي عليك؟ واضح أنك تعرف ماضيها جيدًا.

- كمومس؟

- لا أريد أن أقول لفظًا كهذا، ففي النهاية نحن نتحدث عن امرأة تائبة.

صرخ زين في وجه الباشا بغضب لم يشعر به من قبل في حياته:

- امرأة تائبة؟ لاحظ يا باشا أن هذه المرأة هي أمي.

ردَّ الباشا بصوت يغلفه البرود:

- أعرف ذلك.

أردف زين بلهجة حادة وصوت غاضب:

- أمي التي دمرت زواجها قبل سنوات طويلة من الآن. تظن أنني نسيت؟ لأني كنت طفلًا وقتها؟ لم أنسَ شيئًا.. لم أنسَ أن ثمة رجلًا حقيرًا دق على معصمه وشمًا غريبًا ويرتدي حذاءً بنيًّا ذا جمجمة قذرة، وقد دخل بيتنا، وتسبَّب في خيانة أمي لأبي.. أنت قتلت أبي،

ودمرت صورة أمي في عيني وعينه.. جئت إلى البيت وقت كان مسافرًا، أذكر جيدًا، وعندما جاء وجدكَ معها، ووجدها عارية.. أذكر فستانها الذي سقط على الأرض في الصالون.. أذكر خيالك وخيالها من خلف الباب الزجاجي.. اتهمتماه أنتما بالجنون وأنه يُهيَّأ له.. أذكر كلامها لي عندما اعترفت أنها تكذب عليه ونصحتني بألا أخبره بشيء.. هل تعرف ماذا أخبرني قبل أن يتوجه للشاطئ ويقفز في البحر الذي كان يرتعب من فكرة المرور بجانبه؟ قال أنا لست مجنونًا يا زين، لقد عرفتُ الحقيقة.. قال لا تثق في أمك يا زين فهي كذبة كبيرة.. ولكني أعرف كل شيء.. أنتَ أنتَ الكذبة الكبيرة. أنتَ مصدر الأذى. وأنتَ الذي خربت البيت. لولاك لكنا أسرةً سعيدةً ولعلَّ أبي كان سيظل حيًّا إلى وقتنا هذا.. قاتل.. أنت خائن وهي خائنة.

نفرت العروق الغليظة من رقبة زين، وتعالت أنفاسه المتلاحقة، أما الباشا فقد ضاقت أنفاسه عندما.. وبكل قسوة.. أيقظ زين جرحه القديم.

لم يعد هناك مجال لوجود أسرار، سوى هذا السر الذي لن يعرفه سوى بعد يومين.. أما الآن، ففكر الباشا أن الصدق هو المنجي الوحيد من الهم الثقيل الذي جثم على قلبه وأحنى ظهره منذ ثلاثين عامًا وحتى الآن.

تنهد تنهدة طويلة ثم قال:

- لو تريد أن تفتح الدفاتر القديمة تعالَ واجلس لأحكي لكَ كل شيء...

ولكن زين مكبل بالوقت، ويشعر بالعجز التام والغضب العارم. خرج صوته الغاضب ناقمًا:

- ليس لدي وقت.

ولأول مرة تحولَت ملامح الباشا الجامدة إلى ملامح حية تنطق بالقهر والحزن والوَحشة:

- تعالَ اجلس لأحكي لك.

ردَّ زين بصوته الغاضب:

- لن أجلس.

وقال الباشا مستسلمًا لرغبة زين:

- لقد أحببت صالحة.. قبل أن يظهر إبراهيم في حياتنا. أحببتها طوال عمري، وأخلصت لها ولم أخُنها قَطّ.. هي اختارت طريقًا آخر غير طريقي. لم تحب أباك، ولكنها كانت تسعى لتكوين أسرة وبيت شريف.. كنت غبيًّا وقتها، فلم أقبل طلبها بالتخلي عن عملي. كيف أترك عملًا جعل منّي الباشا الذي تراه؟ التخلي عن الثراء والعودة للفقر أمرٌ صعبٌ. ظننت أنها لن تتركني على أي حالٍ، وسوف تقبل ظروفي في النهاية.. اعتقدت أنها ستختارني، ولكنها ضاعت مني.. صالحة هي حبي الوحيد، وشئتَ أم أبيتَ أنا حبُّها الأول والأخير. صالحة التي تتهمها بالخيانة امرأة باعت حبها من أجل الشرف.

ردَّ زين حانقًا ونيران الغضب تشتعل في عينيه:

- رأيتك بعيني معها في غرفة الصالون.. خلعت فستانها.. رأيتكما من خلف الباب الزجاجي.. على من تكذب؟ رأيت كل شيء يا حقير.. كانت على ذمة أبي

وقتها، وأنت دخلت بيته ودنسته.

ولأول مرة يحتد الباشا في الكلام ويتحول وجهه الأبيض إلى جمرة حمراء ملتهبة بالغضب:

- بل أبوك هو من دنس حبي. صالحة لي وكانت كذلك منذ عرفتها.. صالحة أحبتني وأحببتها، وأبوك ليس إلا غريب دخل بيننا.. خطفها مني وأقنعها بعيشة شريفة ومستورة ولكنها لم تحبه قَطّ.. لم تكن سعيدة.. كانت أتعس خلق الله.. ثم أصابه ما أصابه من جنون بعد الأربعين، كان يعرف أنه سيفقد عقله وبكل أنانية استحوذ عليها ولعب بعقلها.. أخذها وهو يعرف أنها ستعاني معه وستنجب أطفالًا يرثون المرض ذاته.. أخذها مني وتركني وحيدًا إلى الأبد وانتحر.. أناني.. أناني لأبعد درجة.. في البداية يتزوج امرأة ليعذبها بجنونه، وبعد ذلك يعرف أنها لا تحبه فيستبقيها، وعندما تعتمد عليه وتحاول أن تعيش عيشة شريفة معه يتركها هي وطفلًا صغيرًا وحدهما ويتخلص من حياته بكل بساطة! حاولت أن أعوِّضها.. أن أقف بجوارها في محنتها.. وهي.. صالحة.. حب حياتي الوحيد لم تقبل أن تعود إليَّ بعد موت زوجها.. هل تعرف لماذا؟ من أجلك أنت.. رغم أنها كانت تحكي لي عن نظراتك لها.. عن استحقارك الشديد وعدم احترامك لها. كانت تلومني وحدي على تلك الليلة الملعونة عندما زرتها في البيت وأنت رأيتنا.. كانت تظن أنك ستنسى عندما تكبر ولكنك لم تنسَ.. ظللتَ تستحقرها طوال طفولتك وعندما كبرت.. تظن أنها لا تشعر؟ لا تحس؟ لا تعرف ما الذي يدور في عقلك؟ أنت مخطئ جدًّا..

صالحة امرأة حساسة، وأنت أهنتها بنظراتك وأفكارك السيئة عنها كل يوم.. كل يوم عشته معها كنتَ تخبرها بعينيك أنها خائنة وماضيها قذر.. حاولت مرارًا وتكرارًا أن أقنعها بالزواج ورفضتني.. زهدت النساء إلا صالحة ولم تقبل بي.. وأنت السبب.. هل عرفت الآن لماذا أبحث عنك؟

كنت أريد أن أعرف.. مِن أجل مَن تركتني صالحة؟ مِن أجل مَن تعاقبني بهذه الطريقة البشعة؟

هل تعرف ما أشد عقاب في هذه الدنيا يا فتى؟ عندما تحب، وتظلُّ تحب، وتبقى محرومًا من حبيبتك، حتى تنتهي أجمل أيام شبابك وعمرك في وِحدة.. لن يستطيع أحدٌ في هذا العالم أن يحقق حلمي الوحيد بالزواج من صالحة. فقد مضت أيامي بدونها وانتهت. وكما ترى.. أنا الآن مسن لا أعرف كيف أصلب طولي، لا أستطيع المشي أكثر من دقيقة حتى تتسارع دقات قلبي وألهث كمن ركض ألف كيلومتر.. ضاعت صحتي بعيدًا عنها.. وكبرت هي بعيدًا عني. تحبني واختارت أن تعيش بدوني.. كل هذا الحرمان من أجل ماذا؟ من أجل أن تكبر وتشيخ مع ابنها الذي يحتقرها لعلَّه يرضى عنها في يوم! ولكن ابنها حمَّلها ذنب انتحار أبيه.. حمَّلها ذنب ماضيها الذي حاولت أن تمحوه.. قلت لها ذات مرة «البشر لا يغفرون يا صالحة.. لا يغفرون أبدًا ولا ينسون.. لا تنتظري أن يرضى ابنك عنكِ» تعرف بماذا ردت علي؟ قالت «ابني أغلى عندي منكَ، وإن لم يسامحني فأنا راضية بهذا العقاب لأكفر عن ذنوبي.» هه.. غبية..

غبية صالحة لأنها بريئة وساذجة، تظن أن الدنيا بخير، وأن الناس يغفرون، وأن الأبناء طيبون!

تدافعت الدموع متلاحقة من عيني زين الواسعتين لتنهمر كشلالات نياجرا.. لم يعرف ماذا يفعل الآن.. أصابه يأس وهمٌّ وحزن غير عاديين.. شعر وكأنه فقدَ القوة على الحركة وظلَّ يئنّ كطائر جريح.. لم يعد يرى الباشا ولا الحذاء ذا الجمجمة ولا ملامح الشقة.. جلس على الأرض يبكي مثل الطفل اليتيم عاجزًا عن فعل شيء..

كان الباشا يقف أمامه بالضبط مرتعش الأوصال واضعًا يده على قلبه.. مترددًا أن يأخذ بيد الشاب الذي حرمه من حب حياته للأبد، أو أن يركله بقدمه ليفرغ غلَّه، أو أن يخبره بالسر الأخير وشكوكه الكبيرة قبل أن يمضي يومين.. ولكن لولا جاءت لاهثة وقد اعتراها القلق بعدما انتظرت زين كثيرًا ولم يتبعها.. ساورتها شكوك أنه تشاجر مع الباشا شجارًا خطيرًا، أو أن زين فقد أعصابه وضرب الرجل.. ولكنها فوجئت بالباشا ممسكًا بقلبه وكأنه أصيب بذبحة في الصدر، وهالها منظر زين وهو يبكي جالسًا على ركبتيه.. قفزت لتجلس بجواره ووجدت نفسها تضمه إلى صدرها دون أن تفكر مرتين..

- زين.. ما بك؟

تعالت شهقات زين الذي بدأ في البكاء بحرقة لأول مرة في حياته. بكى كما لم يبكِ من قبل قَطّ.. دفس رأسه في صدرها وظلَّ يبكي بكل ما أوتي من ضعفٍ ويأسٍ.. لم تتكلم.. ضمته وهي تدمع في صمت وتملس على رأسه.. تغرس أناملها في شعره الغزير وتدلك رأسه برفق وحنانٍ..

عرفت وقتها أنه حتى لو سافر ستتواصل معه. لن تقطع صلتها به. عرفت أن حبل الوصال بينهما لا يجب أن ينقطع، وأنه يحتاجها على الأقل، ولا بُدَّ أن تكون بجواره وتنسى ما قاله في وقت غضب وأحزنها.. قالت بصدق:

- لن أتركك يا زين.. لن أتركك.

لا تعرف لماذا بكى أكثر عندما أخبرَته بذلك! أما هو فكان يفكر في شيء واحد.. «ها أنا أبكي.. صدري يرتج.. يعلو ويهبط.. مثل صالحة.. هكذا كانت تشعر إذًا؟ عندما أخبرتني أنني سأعرف عندما أكبر كيف تشعر؟ وقتها قالت لي عندما تكبر يا زين، لا تفقد عقلك مثل أبيك، فالنساء لن يحتملن رجلًا فاقدًا لعقله»...

***

وجفوني لا تنسدل كأني بلا جفون.. ودموعي لا تكف عن عيني..

دموع هيستيرية كأنها قِدرٌ يغلي بداخلي.

إحسان عبد القدوس

# - الساعة الحادية عشرة -

قام زين مترنحًا محاولًا تهدئة نفسه، مبتعدًا عن حضن لولا الدافئ، ليجد الباشا يجلس على كرسيه البعيد وما زال واضعًا يده على صدره، ممددًا جسده إلى الخلف وينظر للسقف وكأنه ينظر لشريط حياته بأكملها.

- لولا.. آسف لن أستطيع.

سألته لولا عن قصده ولكنه لم يجب. فكيف سيخبرها أنه رجل مُعرَّض للجنون في أي لحظة؟ وأن قُربه منها يمكن أن يضرها؟

خرج زين ولولا من البيت، وقد شعر زين وكأن حِملًا كبيرًا قد انزاح من فوق ظهره.. لم يعد يخشى الموت كما كان متوقعًا.. بل بالعكس.. يشعر الآن أنه يريد لهذه الساعة المتبقية من عمره أن تنقضي بسرعة.. قال لنفسه وهو يتوجه بصحبة لولا إلى سيارته: «في تمام الثانية عشرة، سينتهي كل شيء. لا أريد أن أعيش دقيقة إضافية أخرى.. لا أريد».

- إلى أين؟

سألته لولا وهي تضع حزام الأمان.

- إلى الشركة.. لدي معاد سريع. ثم إلى البيت.. سأودعهم، وسأودعك هناك.

- لن تأخذني إلى معادك في الثانية عشرة؟

- لا.. لا يمكن.

- ومتى ستخبرني بالسر؟

- ستفهمين كل شيء الآن.

وانطلق بسيارته قاصدًا الشركة.. وعندما وصل استدرك أنه قد تأخر كثيرًا على الموعد المتفق عليه مع حياة.. «يبدو أنني فقدت إحساسي بالوقت.. طبعًا انتظرَتني كثيرًا ولم آتِ.. خذلتها مرة أخرى».

بحث عن هاتفه في جيبه.. وجده على الوضع الصامت، ووجد خمس مكالمات فائتة من حياة.

- غبي..

قالها متحسرًا فسألته لولا:

- ماذا؟

- كالعادة.. لم أوفِ بوعدي لحياة.

- ومَن هي حياة؟

- حبيبتي السابقة.

حدقت فيه قليلًا ثم سألته:

- بماذا وعدتها؟

- بأن أظل معها للأبد.. وتركتها، وبأن أقابلها بعد انتهائها من العمل اليوم لأخبرها لماذا تركتها، وتأخرت عليها حتى ذهبت.

نظرت له لولا بمشاعر مختلطة.. مشاعر متضاربة بين الشفقة والحماس. ها هو يحكي لها عن حبيبة قديمة. ألا يحكي الأصدقاء أشياء مثل هذه لبعضهم البعض؟

وجدت نفسها تقول:

- اتصل بها.

- متزوجة.. لا يمكنني أن أتصل في هذا الوقت.

رفعت حاجبيها ثم هتفت:

- متزوجة؟!

وقبل أن تستفسر لولا عن طبيعة العلاقة بين زين وحبيبته السابقة، سمعت صوت طرقات على زجاج السيارة.. وإذا بها امرأة جميلة، ترتدي فستانًا بسيطًا أسود اللون وطويلًا، ذا أكمام قصيرة، ضيق من جهة الصدر، وينسدل واسعًا فوق ردفيها، وشعرها الطويل معقود من الخلف، وفي عينيها كثير من الأسئلة، تنقر بأناملها الرقيقة المضمومة زجاج نافذة زين.

التفت زين ليجد حياة واقفة بجوار نافذته وتنظر إليه، فتح زجاج السيارة على الفور ثم قال:

- ما زلتِ هنا؟

ألقت حياة نظرة متفحصة على الفتاة التي تجلس بجوار زين قبل أن تقرر تجاهل وجودها:

- كنت أعرف أنك ستأتي هذه المرة.

- الساعة الحادية عشرة مساءً.. كيف بررتِ غيابك عن البيت؟

- لو تقصد زوجي، أخبرته أنني مضطرة للعمل وقتًا إضافيًّا هذه الليلة.. ستجعلني واقفة هكذا؟

استدرك زين الأمر فنظر للولا نظرة فهمت مغزاها على الفور، فترجلت من السيارة وعرفت أن الوقت قد حان..

قالت حياة وهي لا تفهم من هي هذه الفتاة الغريبة التي يصحبها زين معه في وقت متأخر من الليل:

- لنجلس في كافيه الشركة.

اختارت حياة الطاولة التي اعتادا أن يجلسا إليها فترة ارتباطهما.. الطاولة التي شهدت بداية قصة حبهما، وأول اعتراف بالحب، وأول لمسة يد، وأول قُبلة خاطفة قبل أن يلاحظ أحد.. الطاولة التي شهدت خلافاتهما، وانفصالهما بدون سبب واضح، وبكاءها وحدها بدونه، ويأسه في الأوقات الصعبة، وتحول علاقتهما من علاقة حب ملتهب، إلى صداقة محقونة بالحزن وغصة أبدية تسكن القلب.

جلس زين وبجواره لولا على كرسيين وفي مقابلهما جلست حياة وقلبها ينبض بعنف:

- ألن تعرِّفني بالآنسة؟

قالتها حياة وهي تنتظر من زين أن ينتقم منها.. أن يخبرها أنه سيتزوج مثلما فعلت هي، وأنه يحب غيرها، وأن وهمها بأنه ما زال يحبها ليس سوى غرور أنثوي تافه وغباء ليس له مثيل.. ولكنه فاجأها بقوله:

- لولا.. العميلة التي اتصلت بنا على مدار شهر كامل.

اندهشت حياة وتمعنت في النظر للفتاة جيدًا:

- أنتِ؟

ردت لولا شاعرة بالخجل:

- قصة طويلة.. لعلَّ زين سيخبرك بكل شيء.

قال زين مستعجلًا:

- ليس لدي وقت.. اسمعي يا حياة، واسمعيني يا لولا أنتِ أيضًا طالما تريدين أن تعرفي عني ما كنت أخفيه.. ليس لدي وقت لأحكي الحكاية مرتين. جئت لأخبرك يا حياة ما الذي أجبرني على تركك بشكل مفاجئ.. لدي حوالي عشر دقائق لأتحرك من هنا فاسمعيني جيدًا..

وحكى لها كل شيء.. في حضرة لولا التي كانت تسمع حديثهما وهي متأثرة للغاية. حكى لحياة ببساطة وباختصار، وبصدق شديد، أنه لم يحب غيرها، وأنه عندما رآها لم يستطع سوى أن يقع في حبها.. متناسيًا مرض عائلته الوراثي، ولكنه استفاق عندما لمَّحت له ذات ليلة أنها تريد أن تصبح زوجته.. استفاق عندما شاهد سيناريو كل أجيال العائلة من الجد الأكبر إلى الأب المنتحر.. حكى لها عن تفاصيل المرض الأسود الوراثي الذي صار لعنة في عائلة أبيه. وأخبرها أن هذا هو الخير، وأن الحب هو أن تترك حبيبك يطير، وألا تحبسه في قفصك الذهبي حتى يختنق ويموت من الألم والعذاب.

أخبرها بكل شيء دفعة واحدة.. كل ما شعر به طوال خمس سنوات في جمل كثيفة متدافعة..

وأخيرًا ودعها دون أن تفهم لماذا، وأين سيرحل؟

- وها أنا قد أخبرتك بكل شيء. لم أستطع أن أظلمك معي وأظلم أولادنا من بعدي.. ولا تشكّي لحظة أنني غاضب من زواجك.. بل بالعكس، كان يجب أن تعيشي، وتري أطفالك أمام عينيك. أطفال أصحاء البدن والعقل.

لو لم تفعلي ذلك لقتلني الذنب طوال عمري. أسامحك على كل شيء، وأتمنى من كل قلبي أن تسامحيني يا حياة..

كانت الدموع محبوسة في عينيها، ولكن كلامه غسل صدرها، ردَّ لها كرامتها الضائعة، وصالحها عليه وعلى نفسها.

- كنت أعرف أنك لست نذلًا. كنت أعرف أن هناك سببًا قهريًّ يجعلك تتركني. ظننت أن عائلتك رفضتني وأنك استحيت من إخباري. ذهبت بي الظنون إلى كل الأفكار الممكنة وغير الممكنة، ولكن لم يخطر على بالي قصة هذا المرض الغريب. أصدقك يا زين، وأسامحك، ولن أنسى أيامنا الحلوة.

تأمل زين وجهها الذي طالما أحبه، وخصلات شعرها الناعمة المعقوفة للخلف، وفستانها الأسود القديم الذي يذكِّره بأجمل لحظات عاشها في حياته.. وجد نفسه يقول:

- ممكن أضمك؟ لآخر مرة؟

قامت حياة عن كرسيها واقتربت منه، وكذلك فعلَ زين.. وقف أمامها وهو يعرف أنه لو ذهبَ لحتفه دون أن يودعها، سيظل شيء ما يربطه بالحياة وبالدنيا.

ضمها وسط نظرات الجميع، غير أن أحدًا لم تَثُر حفيظته أو يغضب، وكأن الزمن تجمَّد والقلوب تصافت، وكأن أمطارًا من الدموع المالحة غسلت قلوب الجميع. لم تقم لولا من مكانها.. شعرت أن وجودها في هذه اللحظة خاطئ، وأنها يجب أن تختفي تمامًا الآنا لتتركهما على

راحتهما، ولم تستطع أن تتحرك من مكانها وتترك المقهى في هذه اللحظة فيشعران بالحرج. اكتفت بأن تجلس مرتبكة وتفكر في زين.. كيف أنه شاب طيب القلب ومخلِص!

وعندما انتهى عناق الوداع، وجدت زين مقبلًا نحوها بعينين حمراوين وقال بصوت مهزوم:

- هيَّا بنا.. لنذهب.

وانطلقا إلى البيت.. إلى العمارة الصغيرة المؤلفة من ثلاثة طوابق، القابعة في أحد شوارع الشاطبي الضيقة، والتي تعلو المقهى الشعبي البسيط. ما زال يرتاده ثلاثة أصدقاء منذ ثلاثين عامًا وأكثر، وحتى الآن.. منذ شبابهم وأيام طيشهم، وحتى كهولتهم.

ثلاثة رجال ما زالوا يلعبون الطاولة ويحتسون القهوة، ويدخنون السجائر، مرت السنون من فوقهم ولم تستطع تحريكهم من أماكنهم، ولم تنسَ السنوات أن تلعب في ملامحهم كثيرًا، وأن تحفر التجاعيد على وجوههم، وأن تخلع بعض الأسنان الأمامية، وتُسقِط غزارة شعرهم.. لعب الزمن في أجسادهم قبل أن يمضي في طريقه إلى الأمد البعيد، ترك كتلًا من الدهون في بطونهم وترهلات في أذرعهم. ما زال الثلاثة رجال جالسين، رغم كل شيء، يضحكون ويسخرون من الناس ومن الحياة.. تحت عمارة الحسيني.. عمارة المجانين.

- هذه هي عمارتنا..

قالها زين وقد أمسك يدَ لولا بحركة تلقائية غير

محسوبة.. اطمأنت لولا له ونظرت للعمارة القديمة في شجن، لترى لونها الأصفر الباهت المائل للرمادي، وتلمَح رجالًا ثلاث، يجلسون على الرصيف إلى طاولة دائرية صغيرة، ويحدِّقون لهما مبتسمين، ويهمسون بكلام لا تعرف ماذا يمكن أن يكون. قالت ببراءة الجاهلين:

- عمارة جميلة.

وضحك زين لأول مرة منذ رأته حتى الآن. نظرت إلى وجهه لتجده صافيًا، وكأنه بعدَ عناق حياة، وبعد اعترافه لها بسرٍّ تركه لها، تخفف من الأحمال، وصار هادئ النفس ورائق المزاج.

- عمارة جميلة؟ أنت تجاملين.

وقال الرجل السمين وهو يدخن النرجيلة:

- كل سنة وأنت طيب يا زين.. عيد ميلادك الليلة؟

وقال الأصلع بعد أن أخذ رشفةً من فنجان قهوته السادة:

- انتظر.. قلها له بعد نصف ساعة.. بعد الثانية عشرة يا جدع.

وقال الثالث وهو ينفث دخان سيجارته في وجهيهما قاصدًا استفزازهما:

- ولكن اعمل حسابك يا زين، إذا جننت الآن سأحرق العمارة بمن فيها.. لا أريد أن أخسر الرهان.

ثم ضحكوا ضحكات مغيبة، وكأن الدخان أفقدهم الإحساس بالمكان والزمان والناس من حولهم، وكأنهم ينتمون لعالم آخر، كله ضحك وخال من المسؤوليات

والهموم.

لم يغضب زين مثل عادته، وبدلًا من هذا تبسم:

- سأفتقدكم يا رجال الهلس والعته.. سأفتقدكم فعلًا.

ضحك الثلاثة بصوتٍ عالٍ.. وقال السمين وهو يحرك زهر الطاولة في كف يده، ثم يرميه بحرفية:

- ستفتقدنا؟ لماذا؟ ستسافر؟ أم لأن عقلك سيسافر؟ ها ها..

قال زين مازحًا وهو يمسك بيد لولا ويقترب من طاولة الرجال:

- هل تعرفون ما الجنون فعلًا؟ الجنون أن يلتصق فخذك بالكرسي ذاته طوال ثلاثين عامًا دون أن تشعر بأن هناك مشكلة.

وضحك زين، وضحك الرجال معه.. ووجدت لولا نفسها تشاركهم الضحك.

قال أحدهم:

- لا لا.. هذا عين العقل. ولكنك تغار لأننا لم نحجز لكَ كرسيًّا على الطاولة تلصق فخذك عليه.. ها ها..

وتعالت الضحكات مرة أخرى..

وقال الأصلع:

- ولكن مَن الجميلة التي معك؟ وهل هي ذَكر أم أنثى برأسها الحليق هذا؟

قالت لولا مازحة:

- أنثى ولكن أرجل منكم.. ها ها.

فضحك زين من قلبه متفاجئًا كيف عرفت لولا أن ترد عليهم بجرأة هكذا؟ ثم أخذها وصعدا إلى بيت أمه صالحة.

- أفحمتِ الرجال.

قالت لولا ضاحكة:

- إنهم مجانين.

ثم تداركت ما قالته فانقبض قلبها وأردفت:

- آسفة.

قال زين وهو يطرق باب الشقة:

- لا عليكِ. إنه أمرٌ واقعٌ. ليست سُبَّة.

انفتح الباب، ودخلا إلى البيت، ورأت لولا سيدة مسنة تبدو في حالة صحية ونفسية سيئة. ووجدت زين يقول بدون سلام ولا تمهيد موجهًا كلامه للسيدة المسنة:

- جئت لأعرف شيئًا واحدًا.

سألته صالحة وهم يجلسون في غرفة الصالون، وهي ترمق لولا دون أن تعرف من هي، وما الذي أتى بها إلى بيتها وبصحبة ابنها:

- مَن هذه؟

ارتبكت لولا الجالسة بجوار زين على الأريكة الأرابيسك الصغيرة، بينما ربَّت هو على رجلها بيده في حركة تلقائية، وقال موجهًا كلامه لأمه الجالسة إلى كرسي أمامه:

- مَن هذه؟ لولا.. نسخة مصغرة منكِ.. يمكنك أن تقولي هذا.

- ماذا تقصد؟!

- لا يهم.. المهم أريد أن أعرف شيئًا واحدًا.. ليس لدي وقت. سأسألك وجاوبي بدون لف ولا دوران.

- لن تشربا شيئًا؟

قال وقد نفدَ صبره:

- ماما. لقد جئت من عند الباشا.. القوَّاد إياه.

ابتسمت صالحة في سخرية أليمة بعد أن فاجأها قوله:

- وماذا أيضًا؟

- أخبَرني بكل شيء.

- جيد. وماذا تريد؟

- لم تحبي أبي قَط.

- أعترف.. لم أحبه. وليس ذنبي. الحب غصب؟

- أحببتِ ذلك القوَّاد المنحرف طوال عمرك؟

نظرت صالحة للولا في خجلٍ مستاءة، لا تريد أن تنفضح أسرارها بهذه الطريقة أمام غريبة لا تعرف من أين جاءت، ولكنها وجدت أنه لا بُدَّ من الرد على ابنها الذي يحاول إهانتها:

- امرأة مثلي يا زين، من ستحب؟ دكتور؟ مهندس؟ ستحب قوَّاد، أليس كذلك؟

- ولكنكِ تبتِ!

- وقَبلتَ أنتَ توبتي؟ عاملتني كتائبة؟

- وهل أنا من سيدخلك الجنة أو النار؟

- أدخلتني النار بالفعل، ولم تسامحني.

- ولماذا تنتظرين مسامحتي أنا؟ لست إلا شابًا عديم الأهمية. لماذا انتظرتِ لأسامح أو أقبل! أنا.. أنا لا شيء.

ضحكت صالحة مرة أخرى وقد شعرت بألم في صدرها، وانقباضات في قلبها:

- لماذا تفتح الدفاتر القديمة؟

- لأني أريد أن أعرف.. عندما كذبتِ أمام عيني، وأخبرتِ أبي أنك لم تخونيه، وأنه كان يُهيَّأ له وجود رجل في البيت، وأنه لم يرَ في الحقيقة شيئًا مما رآه.. ماذا حدث بعد ذلك ليجعله ينتحر؟

قطبت صالحة حاجبيها بغضب، غير مرتاحة لوجود لولا، وللبوح بكل هذه الأسرار المهينة أمامها:

- قل لي من هذه؟

- قلت لك.. لا يهم. يمكنك أن تأخذي راحتك أمامها، فهي تعرف كل شيء.

- تشك أنني قتلته؟!

- لا.. مات أمام عيني. رمى نفسه في البحر، ولكن.. ماذا قلتِ له قبلها عندما أجبرتني أن أبقى في غرفتي؟ كيف دفعته إلى ذلك؟

قالت بصوت مرتعش وهي تحاول أن تصرخ وأحبالها الصوتية المهترئة لا تسعفها:

- ومَن دفع عمك للانتحار؟ ومَن دفع جدك؟ ومَن دفع جد جدك للانتحار؟ أنا؟

ثم قامت فجأة وكأنها اكتسبت قوة من مصدر مجهول، واقتربت منه وهي تنظر إليه بغضبٍ شديدٍ:

- ذنبي الوحيد أنني تزوجت رجلًا لا أحبه.. فعلت ذلك لأعيش عيشة شريفة، لأساعد نفسي على التوبة. قبلني عندما رفضني الجميع، وعندما تخلَّى عني الباشا بغرورٍ وكبرٍ.. نعم لم أحبه قَطّ.. أحببت العيشة الشريفة فقط. مع ذلك يعاملني الجميع كساقطة!

نعم ضعفت مرةً، وأدخلت الباشا إلى بيتي، ولم يحدث شيء.. لم يحدث شيء سوى حضن مشتاقين حُرمَا من بعضهما البعض.. ضعفت مرة. وهذا ذنبي الآخر.. حدث ذلك منذ سنواتٍ طويلة، ولم يتكرر. تركته. أغلقت الأبواب كلها في وجهه رغم حبي الشديد له، وعندما حاول أن يعود لي بعد انتحار أبيك، رفضته من أجلك. قلت لنفسي: «ستتزوجين الرجل الذي كسر ابنك؟ الذي يحاسبك ابنك على خطئك معه طوال الوقت؟ الرجل الذي يذكرك بماضيك الأسود؟ والذي دفعك لتتزوجي من رجل لا تحبينه؟ من أول رجل يقبل عيوبك وماضيك غير المشرف؟» رفضته ولم أرَه مرة أخرى أبدًا سوى بعد وفاة أبيك، رأيته مرتين أو ثلاث بعدها ثم تركته للأبد، وأعيش عقابي بفم مغلق وقلب راضٍ لأنني أستحق.. أستحق العقاب والعذاب فأسكت ولا أتكلم ولا أعترض. ولكن كفى.. كفى.. تلومني كل يوم بنظراتك. وتجيء وتلومني الآن على أشياء قدرية؟ على انتحار أبيك لأنه مجنون؟

على المرض الوراثي اللعين؟ تلومني أنا؟

ثم اقتربت منه أكثر وسط ارتباك لولا وعبوسه:

- اسمع يا ولد...

بيديها المرتعشة دفعته من كتفه دفعة خفيفة وأردفت:

- الحقيقة أنك تستمتع بإلقاء اللوم على أضعف شخص يمكنك أن تلومه، وهو أنا للأسف.

تلومني على كل شيء يحدث في حياتك، وفي حياة الآخرين.. ولكن كفى.. لن أسمح لك.. لست مسؤولة عن موت أبيك، وذنوبي أدفع ثمنها وحدي. ولا أطلب من أحد مسامحتي.. فهمت؟

استدرك زين أن الوقت يمضي، وأنه يفعل عكس ما كان ينوي فعله. جاء بنية مسامحتها، وضمها إلى صدره وإخبارها بأنه يغفر لها من قلبه.. ما الذي دفعه الآن إلى قول ما لا يريد قوله؟ وإلى لومها أشد اللوم على كل شيء؟

كلما رآها شعرَ بوخزة في قلبه.. من الصعب أن ينسى تلك المشاهد التي يراها في كوابيسه منذ صغره.

من الصعب أن ينسى خيالها خلف الباب الزجاجي وهي تخلع فستانها ليسقط أرضًا.. ضحكاتها المائعة مع رجل لا يعرفه في غرفة الصالون.. كيف سينسى الحذاء البني المصنوع من الجلد، والمحفور عليه صورة جمجمة مقيتة؟ ذلك الحذاء الذي يركض خلفه في المنام، فيستيقظ مفزوعًا ليجد نفسه وقد سقط من فوق فراشه.. وكيف سينسى ذاك الوشم المخيف لعين تبحلق بحدة رغم

انقسامها لنصفين!

كيف يمكنه أن ينسى الكذبة التي صدمته في أمه طوال عمره؟ وهي تخبر أباه أنه لم يرَ أحدًا في بيته وأنه يُهيَّأ له لأنه مجنون؟ استغلت فقدانه لعقله وضعفه وشكه في نفسه وفي كل ما يراه، لتؤكد له أنه يُهيَّأ له.. حدث ذلك أمام عينيه.. لم ينس قَطّ.. لن ينسى أبدًا..

ولكن.. ألم يحن وقت المصالحة والغفران؟ ألم تدفع الثمن وأكثر؟

هي أيضًا حُرمَت من حب عمرها مثله. لم يكن يعرف سوى اليوم.. هي أيضًا تركت الباشا واختارت الشرف.. تركت الحب واختارت الزواج.. تركت العهر واختارت حياة كريمة وإذا كانت على حساب سعادتها.

شعر زين بالأسف والخزي. يريد أن يصالحها والكِبر يمنعه، كرامته كرجل تمنعه، ولكن الوقت يدفعه لينهي كل شيء دفعًا. لن يذهب قبل أن ينال رضاها على الأقل.

- ماما.. آسف على كل شيء. يبدو أنني عذبتك.. ولكن...

ولكن هل رأيت الناس في الشارع كيف ينظرون إليَّ؟ هل ذهبتِ إلى المدرسة بدلًا مني ليسبك التلامذة بـ «ابن العاهرة؟»

أنا آسف.. ولكن تعرفين مدى ثقل هذا على قلبي؟ تعرفين ماذا تحملت؟ ليس بيدي..

أنا آسف..

دمعت عيناه مرة أخرى الليلة.. فشعر بمدى ضعفه في

هذه الساعة الحرجة من عمره.. شعر أن كل الدموع المختزنة في عينيه طوال الأعوام الفائتة قررت أن تسقط كلها الآن..

قالت لولا وهي تنظر في ساعة هاتفها:

- زين.. الميعاد.

نظر زين للساعة ووجد أنه لم يتبقَّ على الثانية عشرة سوى خمس عشرة دقيقة.

- ماما...

قال وقد شعر أن قلبه بدأ ينبض بسرعة مخيفة.. لم يعرف ماذا يقول فضمَّ أمه إلى صدره بسرعة.. لم يعد يبكي، ولم يعد يشعر بشيء سوى برعشة غريبة اعترت جسده. أحست صالحة بالخطر. تساءلت بينها وبين نفسها، ما الذي أصاب ابنها؟ فجأة والآن؟ لماذا يضمها بقوة هكذا؟ وما الذي جعله يقطع وصلة العتاب واللوم ليمنحها المسامحة والرضا؟! ومَن هذه الفتاة التي تذكِّره بميعاد ما؟

- زين..

- ماما، لا تتكلمي..

أمسك ذراعيها بكفَّي يده ونظر إليها مطوَّلًا قبل أن يقول:

- أسامحك.. أنا المخطئ.. لم أشعر بك.. لمتك على كلام الناس. وعلى خطط القدر.

- زين.. ماذا بك؟

- ماما.. سامحيني أنت أيضًا. واذكريني بالخير.

ثم أمسك يد لولا وسحبها مهرولًا باتجاه الباب.

ركض زين هابطًا السلم وهو يجرُّ لولا من خلفه.. وتحاول هي أن تلاحق خطواته الواسعة.

- هل ستلحق الذهاب إلى المطار في ربع ساعة؟

قال زين مستغربًا:

- أي مطار؟

- ألست مسافرًا؟

تدارك زين قصدها:

- آه.. ليس بالطائرة.

سألته بإلحاح:

- بالسيارة؟

- لا.. عبر البحر.

وقبل أن يستكملا الهبوط إلى الدور الأرضي وجدَ عمته تقف أمام باب شقتها في الدور الأول وهي مبتسمة بطريقة غامضة وغريبة، وفي يدها تمسك قطعة كعك صغيرة تتوسطها شمعة مشتعلة صغيرة.

- عمتي؟

- كل سنة وأنت طيب يا حبيبي.

- وأنتِ طيبة.

قال وهو في عجلة من أمره.. يريد أن يترك كل شيء ويركض باتجاه البحر.

- ادخل.. أريدك.

- عمتي حليمة.. أنا آسف ولكن لدي ميعاد.. و...

لم تدعه يكمل حديثه.. أمسكته من ذراعه بيد مرتعشة ضعيفة، وبيدها الأخرى يهتز قالب الكعك الصغير في يدها.. سحبته إلى الداخل بوجهٍ باسمٍ وجسدٍ هزيل أهلكته سنوات العمر الطويلة..

- تعالَ يا زين.. تعال يا حبيبي.

ثم بدون أن تنظر لِلُولا التي وقفت أمام الباب في حالة ريبة من هذه المخلوقة الغريبة التي تدعى حليمة، وقالت:

- وتعالي أنتِ أيضًا يا ابنتي.. أنتِ أيضًا.

دلفت لولا إلى المنزل بتردُّد تنظر عن يمينها وعن يسارها، لتجد شقة صغيرة، أثاثها قديم ودافئ.. الكراسي مغطاة بملاءات بيضاء نظيفة، وجهاز التلفزيون قديم الطراز مغطى بمفرش ذهبي من الدانتيل.. خشب الأثاث متآكل، والنوافذ الزجاجية الصغيرة مفتوحة تطل على قمرٍ منيرٍ، وتسمح للهواء البارد أن يسبح في البيت، ورائحة كعك البرتقال تملأ المكان.

- عمتي.. آسف. ولكن لدي موعد.

- سنة حلوة يا جميل.. سنة حلوة يا جمييييل.

دندنت العمة حليمة كاشفة عن فم خاوٍ تمامًا من الأسنان.

- يا عمتي شكرًا...

ثم أطفأت العمة الشمعة بنفسها بعد أن نفخت فيها أكثر من مرة، ثم وضعت كعكة البرتقال الصغيرة على الطاولة وتناولت ملعقة. أخذت قطعة ووضعتها لتذوب في فمها،

وأغمضت عينها باستمتاع شديد.

- طوال عمري أحب كعكة البرتقال.

ثم التفتت إليهما.. وقالت باستغراب:

- من أنتما؟ هل جئتما لتقتلاني؟

وأصابها الفزع فجأة، ثم هرعت بخطوات ثقيلة إلى زاوية الصالون ووقفت ترتعد.

- تريدان قتلي؟ الكعكة بها سم؟ لماذا؟

ثم جلست القرفصاء تبكي، خافت لولا من هذا المنظر الغريب:

- زين! ماذا أصاب عمتك؟

قال زين بنفاد صبر وهو ينظر للساعة:

- مجنونة.. مثل أبي.. مثل جدي.. مثلي إذا عشت أكثر من هذا.

ثم وقف أمام لولا وقد حسم الموقف في رأسه. مسك ذراعيها بيديه ونظر في صميم عينيها:

- لولا.. كنت أريد أن أقول «فرصة سعيدة» أنني عرفتك.. ولكن كما ترين، ما أتعس الوقت الذي تقابلنا فيه!

لولا.. شكرًا على كل شيء.. لا أخفي عليكِ. وجودك فرق معي. وأحببت صحبتك. أنتِ جميلة يا لولا وإن حاولتِ أن تتمردي على هذه الحقيقة.. لستِ مثلهن.. روحك نقية فحافظي عليها. هذا ما اكتشفته اليوم. أنتِ جميلة. آسف إذا ظننت فيكِ ظنون السوء. لا تخبري أحدًا

بماضيك طالما تبتِ، ولا تعودي عن توبتك يا لولا ولا تعاندي نفسك.. لا تحاولي أن تنتقمي من أحدٍ لأن ذلك سيؤذيك أنتِ. مشاعر الانتقام ثقيلة جدًّا على أصحابها يا لولا.. تخلصي منها وسامحي واغفري.. لقد بحثت عنكِ كثيرًا اليوم فقط لأخبرك بهذا الكلام.. لا تصبحي مثل أمي. أنتِ نقية، لا تلوثي نفسك بعمل سيئ. وأرجوك اعتني بعمتي.. يجب أن أذهب الآن.. تعرفين.. ليس لدي وقت. لا تخافي منها إنها مريضة، وهذه مجرد نوبة هلع.. أعرف أنك ستستطيعين تهدئتها. أرجوكِ لا تتركيها قبل أن تهدأ.

هم زين بالخروج ولكنها مسكته من يده:

- زين.. انتظر.. أريد أن أقول شيئًا.

- ماذا؟

- لن أعود عن توبتي مهما حدث. وأنت يا زين السبب. أنقذتني.

- لست أنا.. قلبك يا لولا نظيف. مهما أخطأتِ ومهما ضعتِ، لن ترتاحي إلا للعَيش بشرف. إنها طبيعتك يا لولا.

ثم قال في نفسه قبل أن يمضي في طريقه للبحر: «أنا الآن مرتاح. أنا الآن جاهز».

***

«قَد غمرتني المياه وأحدَقَت بي اللجَج، وَالتف عشب البحر حول رأسي.

انحدرت إلى أسس الجبال وهَبَطت إلى أعماق الأرض

حيث أُغلِقَت عليَّ مَزاليجها إلى الأبد».

سِفر يونان

دودة الكتب حرامية

# - الساعة الثانية عشرة والأخيرة -

انغرست قدما زين الدين الحسيني في رمال شاطئ الشاطبي بالإسكندرية، وتعتبر تلك هي المرة الثانية التي يجتمع فيها مع البحر وجهًا لوجه. لا يحب أن يتذكر المرة الأولى أبدًا، عندما جاء قبل عشر سنوات إلى هنا مع حبيبته (حياة).

اندمج سواد الليل مع زرقة البحر، ليصير الأفق مغموسًا بالعتمة. من بعيد، لم يرَ بوضوح الخط الفارق بين السماء والبحر، وكأنهما صارا كتلة واحدة.. ترك نعليه على الرمال الباردة مثل برودة هذه الليلة، وشمر عن بنطاله قليلًا. وبينما هو يتقدم مترددًا باتجاه البحر، بل إلى داخل البحر، لم يستطع أن يفك عقدة حاجبيه. ولا أن ينسى ماضيه المشؤوم.

الجو ثلج، والبحر هائج.. المياه باردة وكأن البحر كله قد تحول إلى قطعة من جليد.. يرن هاتفه الملقى على الرمال بجوار حذائه بدون صوتٍ.. اسم لولا ينير وينطفئ كل لحظة، ولكنه لا يعرف.. لا ينظر للخلف أبدًا...

***

بينما لولا تترك العمة حليمة وتهبط الدرج بسرعة مهولة.. رعب كبير يطل من عينيها ودقات قلبها تتسارع. وجهها الأصفر يشي بعلة قد أصابت روحها. يراها الثلاثة رجال في المقهى وهي تركض باتجاه الشارع الرئيس دون أن تشعر بالناس من حولها. تكاد تتعثر أكثر من مرة، ولكن لا شيء يمنعها عن قطع الطريق بسرعة،

وكأنها تريد أن توقف الزمن أو تشذ عن قوانينه الصارمة، لتغيِّر قدرًا محتومًا.

***

يمسك زين بيديه ساعة يد سوداء، في منتصف البحر، لم يأخذ غيرها من متاعه. ينظر للساعة التي تلمع من أثر انعكاس ضوء النجوم عليها كالمحموم.. «ثلاثة.. اثنين.. واحد.. دقت الساعة الثانية عشرة.. أتممت الآن أربعين». قذف بالساعة بكل قوته في البحر. والموج يصل لمنتصف صدره. يبلل وجهه ثم ينسحب للخلف، ثم يعود الموج ليغرق وجهه ويتقهقر متراجعًا مرة أخرى.. وكأنها عملية كر وفر.

***

تعبر لولا الشارع الفاصل بين عالم المدينة الصاخب وعالم البحر المُظلِم.. تفادي السيارات السريعة بأقصى سرعة تقدر عليها. وسائقو السيارات في الشارع يزيدون من سرعتهم كالمجانين.. كل سائق منهم له قصة، ويريد أن يلحق بشيء ما قبل مضيّ الوقت. وكأن الفرصة الوحيدة تضيع بمرور الوقت، والروح التي آمنت بالأبدية تُزهَق، والطائرات التي تُوصِل الركاب إلى فرَص محتمَلة جديدة تفوت، والجَمال يذبل مع مرور الزمن، وتذبل الأرواح أيضًا وتفقد شغفها، ويضعف القلب.. يضعف حتى يتوقف تمامًا عن الدق. هذه هي لعبة الزمن الصارمة.. لا أحد يستطيع الخروج عن قوانين هذه اللعبة أو مخالفتها، أو العَيش خارج نطاقها. ورغم أن الزمن طوقٌ لا يرى، إلا أن تأثيره على الناس أقوى من صفعات القبضات

القوية. والجميع يركضون ويركضون، وأبدًا لا يتوقفون عن الركض؛ لعلهم يلحقون قبل أن يمر الوقت.. كل شخص لديه شيء.. شيء مهم يريد اللحاق به، ولكنها مسألة وقت.

ولولا تشعر بذلك جدًّا.. تشعر أن الوقت يتحداها، فتركض بلا توقف وهي شاعرة بالعجز.

تصل للشاطئ، وتنغرز قدميها في الرمال الكثيفة. تخلع حذاءها الذي يعوقها عن الركض بسرعة أكبر، وتلمح زين من بعيد.. لا ترى سوى رأسه، وبقية جسده تحت مياه البحر كحيلة اللون. وبناءً على قانون لعبة الزمن، من غير الممكن أن تقطع هذه المسافة الطويلة بينها وبينه لتصل للبحر، ومن ثم تسبح عدة أمتار قبل أن تغمر المياه رأسه.

***

أغمض زين عينيه وأخذ شهيقًا عميقًا فزفير..

شهيق.. زفير

شهيق.. زفير

وصوت أفكاره يتردد في أذنه وكأنه يسمعه منطوقًا.. صوت مثل الصدى القادم من أعلى جبل في صحراء بعيدة:

«ها هو اليوم انتهى. وانتهى معه كل شيء.. يااه ما كان هذا الصراع الصعب؟ ما هذه الدنيا التي نركض فيها ولا نصل إلى شيء! نتألم ونبكي.. نتعب ولا أحد يشعر.. لا أحد يقدِّر.. ياه لماذا كنت أخاف من البحر؟ رغم صوت الموج الهادر إلا أنه ينعم بالاستقلال عن العالم. لا أحد

موقع الكتب العراقية

هنا غيري.. لا زحام، لا ركض، لا بكاء.. ولا صراع مع حالي.. كل الأبواب انغلقت في وجهي.. جئت إلى الدنيا ظلمًا.. وها أنا أخرج منها بدون ذنب.. أخرج بذنب من سبقوني.. نحن نجيء لنحمل خطايا أهالينا فوق ظهورنا، ونحاسَب عليها حسابًا عسيرًا.. نجيء وفي قلوبنا براءة الأطفال، لنكبر وسط الذئاب، ونكتشف أن البراءة ليست سوى جريمة عظيمة.. يااه.. كل شيء انتهى.. فعلًا؟ هل الموت بسيط هكذا؟

يكفي أن أغمض عيني الآن وأنام.. ولن أستيقظ مرة أخرى أبدًا.. ما أهوَن الحياة! ما أسهل الموت! أنا قادم يا أبي..

قادم الآن»...

***

تركض لولا على الشاطئ. في البداية تغمر ساقيها المياه المحمَّلة بكُتَل من الرمال لتثقِل قدميها.. تحاول أن تقاوم الوزن الزائد الذي يعيقها عن الركض.. المياه وزنها ثقيل، والرمال تشد قدميها للأسفل.. تنادي زين بصوت يرتعش.. تفاجأ عندما تصرخ «يا زين» أن صوتها خانها في أصعب موقف تتعرض له في حياتها.. «زين!» تحاول مرة أخرى لعلَّه يلتفت للوراء ويسمعها، ولكن صوت أفكاره كان أعلى من صوتها.

***

تقدَّم زين خطوة للأمام بداخل البحر.. خطوة جعلته وكأنه هبط درجة من سلم.. درجة عالية.. لتصل المياه إلى

منتصف رقبته.. سارح هو في أفكاره السوداء، مستسلمًا لميتة هادئة. وشريط من الذكريات يمر أمام عينيه بسرعة البرق.

***

شايف البحر شو كبير.. كبر البحر بحبك

***

إنه الحب يا زين. الحب الغبي الذي فعل في ذلك.

***

لن تفهم معنى الندم الذي يكوي الصدر إلا عندما تكبر.. عندما تكبر يا زين، لا تفقد عقلك مثل أبيك، فالنساء لن يحتملن رجلًا فاقدًا لعقله.

***

سوف يحدث شيء يا زين، لن تنساه.. ستحلم به في منامك. كابوس.

***

الجميع كانوا يعرفون أنني أرافق الرجال لأوفر المال الذي سأعيش به. أبي هو السبب.

***

هناك باب.. باب لا تراه أنت. ستفتحه، وقتها.. سترى نورًا.

***

باب غير مرئي يا.. يا زين. ولكنني أراه بوضوح..

لا تتعجل الموت يا زين.. أنت.. أنت تطرق الأبواب الخاطئة.

***

لست في حاجة إلى المال أيها المشرف، ولكنني في حاجة إلى الونس. أنا أشحذ الونس!

***

قلت لها ذات مرة «البشر لا يغفرون يا صالحة.. لا يغفرون أبدًا ولا ينسون.. لا تنتظري أن يرضى ابنك عنكِ» تعرف بماذا ردَّت عليَّ؟ قالت «ابني أغلى عندي منكَ، وإن لم يسامحني فأنا راضية بهذا العقاب لأكفِّر عن ذنوبي.

***

لن أعود عن توبتي مهما حدث.. وأنتَ يا زين السبب. أنقذتني.

***

ثم انقطع شريط الذكريات فجأة، بينما كان زين مغمورًا بمياه البحر المالحة، غير أنه سمع صراخًا.. صراخًا وكأنه قادم من عالم آخر. «هل أنا ميت وهذا صراخ من يتعذبون في قبورهم؟» قالها زين لنفسه.. غير واعٍ من أين يأتي هذا الصوت!

ثم شعر وكأنه سمع اسمه.. آه.. إنه اسمه فعلًا..

- زين.. زين.. زين..

نظر زين خلفه ليرى خيالًا صغيرًا من بعيد.. خيالَ جسد

غطت المياه نصفه السفلي، ويشير بيدين تبدوان كخيطين نحيفين.. وصوت امرأة.. نعم امرأة..

- زين..

«مَن هذه؟» سأل نفسه مترددًا.. هل يجيب؟ ولكنه في عالم آخر الآن.. عالم منفصل تمامًا عن دنيا البشر القميئة تلك.. لا يريد أن يجيب، ولا يريد أن يسمع صوتَ آدميين مرة أخرى.. «ما أجمل صوت الموج!» قال في نفسه وهو منزعج جدًّا من صوت المنادي على الشاطئ البعيد.. نظر أمامه بعد أن قرَّر ألا يعرف مَن المنادي.. ألا يرد.. أن يمضي في طريقه لقاع البحر بهدوء.. «وقتها سيتوقف هذا الصراخ المزعج».

- زين.. يا زين.. لا.. زين..

لم تجد لولا خيارًا آخر سوى أن تقطع هذه المسافة بينه وبينها بجسدها النحيل رغم أنها لم تسبح منذ زمنٍ طويلٍ وتخاف ألا تنجح في الوصول إليه.. ترفع قدميها عن الأرض الرملية من تحتها لترمي بجسدها في المياه وتسبح باتجاه زين.. شعرت أن جسدها الخفيف لا يسعفها.. تسبح والموج يعاندها. تكاد تصل لزين فتجيء موجةٌ لتدفعها بعيدًا عنه بشراسة.. تجيء في رأسها أفكار غريبة «هل يمنعني القدر أن أنقذ زين؟» ولكن لا مجال للاستسلام. كل ما تعرفه أنها لا تريد أن تفقده. ليس بعد أن وجدته، وليس بعد أن عرفت الحقيقة.

***

لم ينظر للخلف مرة أخرى.. تقدَّم خطوةً للأمام.. خطوة

وكأنه هبط درجة سلم ثانية.. درجة أعلى من التي سبقَتْهَا.. غمرت المياه رأسه هذه المرة.. «يااااه.. ما هذا الهدوء؟ هذا هو الموت؟ ما هذه الراحة؟ أهكذا كنت تشعر يا أبي عندما قفزت في البحر؟ أنا قادم إليك...»

غمرت المياه جسده المثقَل بالتجارب السيئة، وكذلك حدث مع لولا. غمرت المياه جسدها تمامًا..

أغمض زين عينيه، وانقطع عنه الأكسجين.. «ما زلتُ أسمع دقات قلبي.. ستتوقف الآن.. لا أشعر بألم.. سأنام».

مرت دقيقة..

مرت دقيقتان..

والقدر يطبخ طبخته،

والسماوات ترتج

والأوامر تجيء من الأعلى

وصفحات تُطوَى

وصفحات بديلة تُكتَب

صفحات في كتاب الحياة..

مرت ثلاث دقائق،

وباب جديد قد انفتح..

***

طفا الجسدين فجأة على سطح المياه.. جسد لولا وجسد زين، الذي شهقَ شهقةً مهولة وسعلَ بقوة.. ثم شهق مرةً

أخرى قبل أن يفتح عينيه ليرى نفسه وسط البحر، وعينان واسعتين تعلوهما أهدابٌ كثيفة مبتلة تحدقان في وجهه بقلق.

- زين.. حاول معي.. أنت ثقيل.

- أنا ميت؟

- لا.. لا يا زين.. أمسك ظهري.. لا تتركني تمسَّك بي.

وسبحت لولا به حتى ألقت بجسدها المنهَك على الشاطئ وهي ترتعش بردًا.. ومن فوقها ارتمى زين.. دفعت جسده من فوقها ليرتمي بجوارها. لم يدرك بعد ما الذي حدث.

- أين أنا؟

- زين.. أنت لن تجن يا زين.

- هه؟

لم يفقه شيئًا.. استسلم للنوم.. حتى صفعته لولا على وجهه.. لم يستفق.

- زين.. يا زين أرجوك.. لا أعرف ماذا أفعل.. تنفَّس صناعي مثل الأفلام؟

ثم ظلت تبكي عاجزة.. قرَّبت وجهها من وجهه وجسدها الصغير ينتفض من البرد، شفتاها زرقاوان وملابسها مثل سحابة تمطر قطراتٍ كثيفة من المياه.. وقبل أن تضطر لفعل أي شيء فتح زين عينيه فجأة، ولفظت عيناه دمعتان، ظنت أنهما مياه البحر.

- زين...

- لماذا جئتِ خلفي؟

هتفت بسعادة:

- لن تفقد عقلك صدقني.. سأشرح لك كل شيء.

- كل الأبواب أُغلقت في وجهي..

- لا.. لن ترث المرض.

- لماذا؟

- عدني أولًا..

- بماذا؟

- سأخبرك بسِرٍّ، ولا تخبر أحدًا.

- سر؟

- سِرُّ الباشا.. هل تعرف لماذا ركضَ خلفك؟ لماذا أجَّرني لأحدثك يوميًّا؟

- لماذا؟

- يشك أنك ابنه.

قام زين ليجلس على الشاطئ بملابسه المبتلة المخلوطة بالرمال.. جسده يرتعش بلا إرادة منه.

- ابنه؟! ابن قواد؟ هه...

ضحك بسخرية غير مصدق.. وأردف:

- لا تعيديني إلى هذا العالم القذر بكل ما فيه.. لا أريد أن أعرف شيئًا.. كل ما طلبته أن أموت بسلام. هل هذا أيضًا صعب؟

- زين.. الباشا لا يهمني في شيء.. ما يهم أنك لن تفقد عقلك.. لن ترث مرضَ أبيك.. أقصد ذلك الرجل..

إبراهيم.

- إنه أبي.. أنا ابن إبراهيم المجنون.. لن يغير أحدٌ هذه الحقيقة.

وقفت لولا على قدميها والأمل يملأ قلبها:

- طظ.. ملعونون جميعًا.. الباشا وإبراهيم والناس.. ورجال المقهى المجانين وعمارة الحسيني الملعونة وكل شيء.. طظ يا زين.. تعالَ معي لنهرب من هنا.. تعالَ لنبدأ حياة جديدة.. المهم أنك لن تفقد عقلك.. لن تجن.. ما معنى انتحارك الآن؟! كنت ستنتحر خوفًا من الجنون.. خوفًا من أن تصير مثل إبراهيم وجدِّك وجد جدك وعمتك حليمة.. وبالمناسبة.. عمتك هي مَن أرسلتني إلى هنا.

- كيف؟

- سأخبرك، بشرط...

- صرتِ تبتزينني يا لولا مثلما فعلتُ معك.

ضحكت وهي تسنده وتساعده على الوقوف ليمضيا في طريقهما معًا على الشاطئ.

- سوف أنتقم منك أشد انتقام.. كل معلومة سأقولها ستكون بشرط.

وابتعدا بعرض الشاطئ، تاركين آثار أقدامهما خلفهما لتمحوها الأمواج. تثرثر لولا عن آمالها الكبيرة وأحلامها، بينما ينفتح باب أمل جديد في قلب زين.. باب ستدخل منه الشمس، ليتبدد الظلام القديم.

***

«فأَمَر الرب الحوت فقذف بيونان إلى الشاطئ».

سِفر يونان

# بعد منتصف الليل

دثرت حليمة لولا وزين بأغطية ثقيلة.. وضعتها فوق كتفيهما، وهما جالسان على الأريكة العتيقة في الصالون.

- أخبرتني عمتك أنك بالطبع سوف تذهب إلى البحر، مكان انتحار أبيك.. أخبرتني أين مكانك، ولمَّا وصلت.. وجدتك تغرق.

وقالت العمة:

- أخبرتني هذه.. هذه البنت الجميلة أنك.. لا تريد أن تصير مثلي، وأخبرتها أنني سعيدة! وأنك بائس.. بائس بعقلك أكثر مني.

قالت لولا:

- هو مجنون يا عمة.. فعلًا مجنون.

قال زين:

- ومن أين عرفتما أنني ابن هذا القوَّاد؟

قالت لولا:

- عرفنا من أمك صالحة.. تذكُر عندما قال الباشا أنه لن يستطيع إخبارك بالحقيقة كاملة قبل يومين من الآن؟

- نعم!

- وقتها كان ينتظر تحاليل ال DNA الخاصة بك.

- نعم؟

- ولكنه استعجل المختبر الذي يتعامل معه، وعندما

أخبروه أن التحليل غير جاهز، جاء إلى هنا، إلى صالحة..

قال زين مندهشًا:

- وماذا حدث؟ وفي البداية كيف تمكَّن من إعطائهم عينة؟ وعينة من ماذا؟

قالت لولا:

- الباشا ليس سهلًا يا زين.. ببساطة أخذ الكوب الذي شربت منه مياه عندما كنت في بيته، تتذكر؟ وأرسله إلى المعمل.

- كوب المياه! نعم! لذلك كان يلحُّ عليَّ أن أشرب! وكلما تكلمت كان يقاطعني ويقول «اشرب يا زين.. اشرب.» أنا مغفل! أكملي.. ماذا حدثَ بعد ذلك؟

- ثم قابل أمَّك ورجاها أن تخبره بالحقيقة، وقتها كنت أهدِّئ عمتك بعد نوبة الهلع التي اعترتها، وعندما هدأت صعدت لأمك في الدور الثالث.. أخبرتها أنك ذهبت، وودَّعتَني، وفطنت هي أنك ستفكر في الانتحار مثلما رجحت عمتك. وقتها فقط اعترفَتْ أنك ابن الباشا. كانت تصرخ وتقول «اركضي والحقي به.» ودخلَت في نوبة انهيار عصبي.. تركتها وهي تحاول أن تركض لتلحق بك، غير أنها تعثرت ووقعت أمام الباب. لم أستطع أن أضيع الوقت أكثر.. قلت لها «سألحق به، اطمئني» ولا أعرف من أين جاءتني هذه الثقة في اللحاق بك قبل أن.. تغرق.. وركضت دون أن أنظر خلفي.. تركت كل شيء وجئت خلفك.

- تعرف كل هذا الوقت أنني ابن الباشا؟ تراني أتعذب

كلَّ يومٍ لأنني سأتم الأربعين وستبدأ أعراض المرض في الظهور عليَّ وتسكت؟ طوال هذه الأعوام وهي تعرف جيدًا أنني لن أرث المرض وتركتني؟ هنت عليها لهذه الدرجة؟

قالت العمة حليمة بصوت متقطع وضعيف، وهي تجلس بجوار زين وتربت على كتفه بكفها الهش:

- أمك خافت.. خافت منك طوال عمرها يا.. يا زين.. خافت أن تبوح بالسر، وأنا.. أنا أعذرها.. ولكنها عرفت أنك ذاهب للموت وأن إبقاء فمها مغلقًا سيتسبب في موتك.. مرة أخرى اعترفت بشيءٍ.. بشيءٍ هي تعتبره مخجلًا.. بشيء تخفيه عنك لأنك سترجمها به.. اعترفت لأنها تحبك يا زين.. لا تريد أن.. أن تفقدك.

قالت لولا مستكملة الحكاية:

- أنت لم ترَها يا زين وهي منهارة وخائفة أن تفقدك. كانت تبكي وتصرخ وتحاول أن تركض في الوقت ذاته.. كان واضحًا جدًّا أنها تشعر بالعجز ولا تعرف ماذا تفعل. أما العمة حليمة فكانت تبتسم في راحة وتقول...

قاطعتها العمة حليمة لتكرر ما قالته وقتها:

- لا يفتح الله بابًا جديدًا حتى يغلقه في وجه عبده. لو زين ليس ابن الحسيني، ولو عرفنا هذه.. هذه المعلومة الآن بالذات، في ليلة ميلاده الأربعين، لن يموت.. زين آتٍ.. زين آتٍ.

سأل زين وقد اعتراه قلق كبير على أمه، شاعرًا بالذنب أنه تسبب لها في كل هذا الألم:

- ولكن.. أين هي الآن؟! لماذا ليست موجودة معكما؟

قطبت العمة حليمة حاجبيها قبل أن تقول:

- المسكينة ركضت خلفك، وصلت إلى باب العمارة وسقطت فاقدة وعيها. نقلها أولاد الحلال إلى المشفى.

انخلع قلب زين وهو يسأل:

- مشفى؟

قالت العمة حليمة بعد أن عادت ابتسامتها الرائقة إلى وجهها من جديدٍ:

- لا تخَف يا زين.. هي بخير.

ثم ضمت العمة حليمة زين إلى صدرها، وهو ما زال في حالة من الذهول لا يصدق ما الذي يحدث من حوله، ويتذكَّر آخر كلام قاله له إبراهيم قبل أن يموت.. «أريدك فقط عندما تعرف الحقيقة أن تتذكر كم أحببتك. أحببتك أكثر من أي أحدٍ. رغم مرضي، رغم جنوني، رغم عجزي عن حمايتك ومراعاتك، إلا أنني أحبُّك.. وأحيانًا الحب يكفي.»

وقال زين في نفسه: «إبراهيم عرف الحقيقة قبل أن يموت.. عرف أنني لست ابنه.» واستغرب زين عندما تذكَّر نظرة الحب في عين إبراهيم، وهو عاجز عن إخباره بالحقيقة، ورغم أنه ابن الباشا، إلا أن إبراهيم قدَّم له حبًّا غير مشروطٍ، ولم يحمل تجاهه ضغينة أو كرهًا.. وتعجَّب زين! كيف لباب النور أن ينفتح على مصراعيه، رغم كل ما كان من ظلام؟ كيف انقلبت الأحداث لينقشع هذا الكابوس؟ ارتاح زين بين أحضان العمة حليمة، وشعر بأن وجه الدنيا القاسي قد انقشع.

# بعد يومين

جلس الباشا على كرسيه بجوار النافذة كعادته، يضع الحاسوب على رجليه وقد أصابه التوتر الشديد. كان يشعر بوخز خفيف في قلبه، ولا يستطيع أن يوقف رعشة يديه. بصعوبة تمالك أعصابه وفتح شاشة الحاسوب. فتح متصفح البريد الإلكتروني، ليجد ما يتوقعه. هناك رسالة بريدية وصلته من معمل التحاليل. رغم استعجاله لمعرفة نتيجة ال- DNA إلا أنه تردَّد أن يفتحها. ظلَّ ينظر لعنوان الرسالة من الخارج دون أن يفتحها وقد ازدادت حدة الوخز في قلبه.. صار مؤلمًا.. تصنَّع أن النتيجة لا تهمه أيًّا كانت.. حاول أن يقنع نفسه بذلك. وأخيرًا فتح الرسالة وقرأ ما فيها؛ لتجحظ عيناه وتعتريه صدمةٌ كبيرةٌ. يعيد قراءة الرسالة وكأن النتيجة ستتغير إذا فعل ذلك! يغلق الشاشة ويضع الحاسوب على الطاولة، ثم يضع يده على صدره الذي أخذ ينتفض!

***

# النهاية

أشرقت الشمس باعثة الدفء في قلوب الغرباء العابرين. نسمات الهواء العذبة كانت محمَّلة بروائح الذُّرة المشوية وملح البحر..

يسير زين مبتسمًا وبجواره لولا.. بدَت مثل طفلة بريئة ولكنها مرت بتجارب الكبار.

قالت وقد تذكَّرت أنهما قريبان جدًّا من الشاطئ ولا يفصلهما عنه سوى سور قصير:

- تحب أن نبتعد قليلًا عن السور؟

قال مبتهجًا وكأنه انتصر على فكرة مقيتة ومؤرقة:

- لم يعد يخيفني البحر.

- طالما لا يخيفك البحر، تحب أن نجلس قليلًا هنا؟

وأشارت إلى السور القصير. سبقها وجلس وأدار جسده لينظر إلى البحر ويصير ظهره للشارع الرئيس. جلست هي بجواره وتأملت المساحة الشاسعة التي أمامها. سماء لا نهائية وماء فيروزي مهيب!

- تعرف يا زين؟ الحياة غريبة جدًّا. لتعطيك شيئًا يجب أن تأخذ في المقابل شيئًا.

- فعلًا.. ولكن يمكنني أن أقول الآن إنني ممتن لكل ما حدث. تخيلي؟

- متخيلة، لأنني ممتنة أيضًا. رغم كل شيء، أشعر أن الحياة حلوة.. الحياة تستحق أن تعاش.. بحلوها ومرِّها.

سكتا قليلًا يتأملان البحر الذي بدا هادئًا اليوم.. ضحكَ زين فسألته لولا عن السبب. قال:

- كنت سأقول لكِ «فرصة سعيدة» أنني قابلتك يا لولا ولكن تداركت الموقف.

ضحكت لولا من قلبها، وقالت:

- كنت سأقولها قبل قليل وتراجعت.

قام زين مندفعًا ووقف أمامها يقول:

- ولكن لماذا؟ لماذا نتراجع؟ لن أفقد عقلي، وسأحرص أن تصالحي أمك وتسامحيها على ما حدثَ.. أنا واثق.. كل المشاكل انتهت يا لولا! فهل يوجد فرصة أسعد من هذه؟

قالت لولا وهي تنظر له بعينين لامعتين:

- وصار لدي صديق! هل يوجد فرصة أسعد من هذه؟

- طبعًا لا.

- فرصة سعيدة يا زين.

- فرصة سعيدة يا لولا.

ونظر زين للولا بامتنان كبير.

***

جلس الثلاثة رجال في المقهى يتحاورون. قال أسمنهم:

- يقولون إنه ليس ابن الحسيني، وبذلك لن يفقد عقله.

محبَطًا رد عليه الأصلع:

- كنت أريد أن أكسب الرهان، هذا عبث.. شيء غير

متوقَّع!

وقال ثالثهم:

- يقولون إن ذاك الرجل المدعو بالباشا أرسل عينة ليعرف إذا كان ابنه أم لا.

قال السمين:

- وهل هناك شك؟ أمه بنفسها اعترفت!

- ألم تكن على علاقة بهذا الرجل وهي متزوجة؟ كيف تأكدَت لهذه الدرجة أنه ابن الباشا؟ لعلَّه ابن الحسيني فعلًا وسيفقد عقله. على الأقل هناك احتمال!

- إمممممم.. وجهة نظر.

قال مدمن القهوة السادة موجهًا كلامه لصديقيه:

- تراهنونني أنه ابن الحسيني؟

وفي حماسٍ قالوا:

- نراهنك.

- على كَم؟

- ثلاثمائة جنيه.

سأل السمين في حماس شديد:

- تتوقعون من سيكسب الرهان؟

بعد أن فكر قليلًا، ضيق مدمن القهوة عينيه بعد أن أخذ منها رشفة أنعشت روحه، وقال حاسمًا الأمر:

- القَدَر كالعادة.

تمت